صافي صافي

الحاج سماعيل

رواية

منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين

صافي صافي

الحاج اسماعيل

رواية

منشورات
اتحاد الكتاب الفلسطينيين

الطبعة الاولى
القدس - ١٩٩٠

صمم لوحة الغلاف
مرشد الجمل

-١-

هذا هو الحاج اسماعيل، إنه ينام الآن على فراش موته، هو يعرف ذلك دون أن يعترف به، يقاوم الموت بكبريائه الذي بناه طيلة خمسة وسبعين عاما، لم يعرف الهزيمة من قبل، فهل يستسلم الآن؟! عارك الحياة طويلا وخرج منتصرا، منتصرا لذاته، لاسرته، لحمولته ولبلدته، الهزائم التي مني بها هزم بها الجميع، لم تكن نتيجة ضعف أو جبن منه، فهو القوي، الجلد والمقدام، لم يهزم ابدا، فانفتال عضلاته وطول قامته وعرض منكبيه لم يهزمها احد، هو المنتصر دوما والخاسرون هم الآخرون.

اليوم دخل المستشفى رغما عنه، في المرات السابقة هرب من محاولة قطع اصبع قدمه الذي بدأ ينخره الموت، "السكري" لا يرحم "والغرغرينا" كلما وجدت منفذا دخلت منه، الهزال هذّه والمرض أعياه، لم يعد كالسابق، حركته قلت، فترة نومه طالت يوما بعد يوم، لم يتبق منه سوى عظامه وجلده وروحه المقدامة التي يجب أن تنتصر دائما.

اخبروه في السابق أن لا حل سوى قطع اصبع قدمه، أقام الدنيا ولم يقعدها، أقامها على اقربائه والاطباء والممرضين، حتى المرضى نالهم نصيب، حاولت إقناعه، قلت: المستشفى للعلاج، اذا كان العلاج بقطع الاصبع فليفعلوا، اياك أن تخرج فتندم، رد قائلا: أنا اكثر دراية بحالتي وصحتي، هل ترى هذا الرجل الذي ينام على السرير بجانبي، لقد

قطعوا رجليه الاثنتين حتى الركبة، يجب أن تعرف انني أفضل أن يدفنوني كما أنا حتى لو كنت متعفناً على أن يدفنوا نصفي.

- لكن الاطباء يقولون بأنهم يريدون أصبع قدمك خشية أن تصبح مثل جارك.

- اريد أن اعود للبيت. رد باختصار.

ثلاثة أيام مرت فاذا به في البيت، كيف خرج؟ لا أحد يدري، فحين سألناه قال: اخبروني بان صحتي جيدة، قالوا: اعتن بنفسك، لا تحتاج مستشفى.

وحدث أنه كلما رأى مريضاً بالسكري قال له: إياك أن تذهب للمستشفى، المستشفيات لا تعرف سوى القص، لا يعرفون سوى المشارط والمقصات والغرز، ابتعد عن المستشفيات، في زماننا لم نكن نلجأ اليها ولم يكن هناك مستشفيات أصلاً، كان كل الناس يعيشون بدونها، إنها بدعة، إعتن بنفسك، وما كتبه الله آت، توكل على الله، فلن نستطيع الهرب من المكتوب .

* * * * *

قبل إدخاله المستشفى بما يزيد عن الشهر قليلاً حاول صوم رمضان، غلبه أياماً وأفطر أياماً أخرى، يوم العيد أصر أن يذهب للصلاة وزيارة القبور، حاولنا منعه دون فائدة، قال: لا أريد أن يشعر أحد بمرضي ويأتي لزيارتي، أن يزورونني كما يزورون كل الناس فاهلاً وسهلاً، أما أن يزورنني مريضاً لا أقبل، ذهب للصلاة، زار القبور، دار من بيت لبيت، سلم عليهم جميعا، أقاربه وأهل بلدته وجيرانه، قالوا له معاتبين: حقك علينا يا حاج فأنت مريض ولن يلومك أحد، أجاب: أنا بصحة جيدة، أنا لست مريضاً.

حين رجع الى البيت ظهراً، كانت قدمه اليمنى قد إشتد بها الألم، تورمت.أصبحت ثقيلة، حذاءه ضغط عليها، الحر أنضجها، اللحم الذي يكسو اصبعه الصغير سقط لوحده، باستطاعتك رؤية عظمه، الجزء

الأسود منه، تستطيع لمسه، تدخل أكبر أصابعك في أسفل قدمه فتلمسه.

الارهاق اقتنص جسده، استلقى على السرير لينام، اقتربت منه وقلت: يا حاج، يجب أن تذهب للطبيب.

- وماذا سيفعلون، سيبالغون في الأمر، هذه مسألة بسيطة تزول وحدها. ازداد الارهاق، كان يفتح عينيه ويغمضهما، كانما يخاطبني أن أذهب، أن اتركه لينام، تركته، نام، نام طويلاً، وعندما صحى طلب ماءاً ليشرب، قلت: يجب أن تنهض لتناول الغداء. قال: اعطني ماءاً.

قلت شهيته للأكل، لم يعد يحتمله، ليس له رغبة فيه ولا يخطر له على بال، ما يريده فقط هو الماء، يسكبه في فمه ليخرج بولاً بعد دقائق، يشرب الماء وينام، يذهب للحمام ويعود للنوم، اقتربت منه قائلاً: ما رأيك يا حاج إن ذهبنا للدكتور عماد.

- ليس الآن، لكن ان شعرت بالتعب اكثر سنذهب.

مضت أيام وهو يقنع نفسه بانه لا يشعر بالتعب، اقتربت مني الوالدة وقالت: كلمه، اضغط عليه، هذا الرجل لا يسمع مني، من واجبك أن تأخذه للطبيب، هو يخاف المستشفى، يخاف أن تقطع رجله، هو يحس بذلك، المشكلة الآن ليست إصبعه، هذه السوسة امتدت، الورم وصل ركبته، العلاج الذي يتناوله هو النوم، خذ والدك قبل أن نبلى بأكبر مما هو فيه.

حاولت أن اكون ودوداً، حملت كأس ماء، أسقيته بيدي، سألته عن حاله، عَمَّن زارهم، وقلت: ما رأيك أن تذهب للطبيب، سنحاوره أن يعالجك دون مستشفى، واذا كان لابد من دخوله فلن نوافق على قطع أي جزء من جسدك، العملية الجراحية يلزمها توقيع، لن نوقع لا أنا ولا أنت. وافق، نادى على الحجة، حَجته، طلب منها أن تأتي بملابسه والحطة والعقال والعصا.

أيكون قد اقتنع أم حاول إقناع نفسه بما قلت!! لايهم، المهم أنه خطى الخطوة الأولى، الخطوات التالية تأتي تباعاً، كل شيء في وقته، وضع المريض هو الذي يقرر إجراء العملية، التوقيع مسألة شكلية حتى

لا يتحمل الطبيب نتائجها وحده، وحتى هذا ليس صحيحاً، فالأطباء لا ينتظرون من مصابي الحوادث توقيعاً، المهم هو حياة المريض، التوقيع يأتي تلقائياً بقناعة المريض بحالته أو بقناعة اقربائه في حالة قصوره، لابد أن تقدم المرض وشدة الاعياء جعلاه يوافق.

لم نجد الطبيب في بيته، إنه يقضي إجازة في الخارج، تحولنا للذهاب قال: لننتظر يوماً آخر.

- يجب الذهاب الآن.

- وماذا سنفعل لو أمرونا بدخول المستشفى!

- سنحاول أن لا تدخله، أما اذا أصروا فلا حول ولا.

- لو يعطونني العلاج، سألتزم بكل ما يقولونه وأنا في البيت.

في دائرة الصحة، كان الممرض يجلس على مكتبه يقلب أوراقاً ويجمع ملفات، قال: اليوم الخميس، لايوجد علاج.

- لكن المريض بحالة خطرة ويحتاج مستشفى.

- يمكنكم الذهاب لعيادة رام الله "تحت".

لا مبالاة الممرض لم ترق لي، قلت حازماً: يجب أن يراه الطبيب، أين هو؟

- لا يوجد طبيب اليوم.

خرجنا الى صالة الانتظار، التفت يساراً، فاذا بغرفة الطبيب نصف مفتوحة والطبيب يجلس على مقعده، ملق بقدميه فوق الطاولة، يداه متعاكستان على صدره، ومسبل عينيه، اشبه بالنائم.

عدت للممرض قائلاً: ها هو الطبيب في الداخل.

- اسمع يا شاب، اليوم مخصص لعلاج الامراض الجلدية.

- لكن الحالة خطيرة. صرخت.

- اذهب وكلمه إن استطعت.

ما العمل الان؟ هل نقتحم غرفة الطبيب وليحدث ما يحدث ؟! أأوقظه من نومه وأهزه من كتفيه! ربما يعرضني ذلك لعقوبة القانون، لكنه يخرق القانون هو الآخر، أأصرخ في وجه الممرض العبوس؟! هذا الممرض لا ينتمي لملائكة الرحمة، لكن، ربما سنحتاج خدماته في

الغد، اذاً ما العمل؟ ونحن نعيش الحيرة هذه، كان مراقب الصحة يوقف سيارته قرب الباب الخارجي، هذا أعرفه، ذهبت اليه مسرعاً أشرح له الحالة، دخل لغرفة الطبيب، نادانا، عاين حالة الوالد وبورقة موقعة بقلمه كنا على مدخل المستشفى.

* * * * *

أمسك احد موظفي المستشفى بالورقة، قلبها، نظر اليها باستغراب واشمئزاز أيضاً، سأل: اليوم الخميس، كيف حصلتم على هذه الورقة؟

- حصلنا عليها.

انتظرنا في عيادة الجراحة، جاء الطبيب، هز رأسه عدة مرات، ودون أن يقرأ ما بداخل ورقة التحويل، وضع يديه تحت إبطيه بشكل متعاكس وقال :انت الذي هربت من المستشفى في المرة الماضية وخرجت على عاتقك.

- صحيح، اخبروني بانهم سيقطعون اصابعي فخرجت.

- ما رأيك لو اخبرتك الآن باننا سنقطع قدمك؟!

التفت الوالد نحوي، يريد أن أسمعه ما يقال، واستغلالاً لثقل سمعه، قلت للطبيب: الآن نخبره بأن اصبعه فقط سيقطع، وحين تجرون العملية تفعلون ما ترونه مناسباً.

- لكن بدون مواربة، يجب أن يعلم بأنه يدخل المستشفى هذه المرة لاجراء العملية.

اقتربت من الوالد وسألته: ما رأيك؟

- ليعالجوني حتى يشفى الجرح.

- الطبيب يقول ان نقولها بوضوح: نقبل باجراء العملية.

- الآن سأتعالج، وعندما يأتي وقت العملية نفكر بالأمر.

- يقول الطبيب: العلاج هو التخلص من الجزء التالف وإلا إذهب للبيت لتعالج نفسك اذا كان بمقدورك.

- ليقطعوا هذا الاصبع، لكن بشرط أن يتركوا لي قدمي.

ها هو يوافق على قطع اصبع قدمه، قطع الاصبع لا يهمه كثيراً، فاصبع القدم ليس قدمه، إنه جزء تافه، لن يغير ذلك من مشيته، لكنه يضع شرطاً لبقاء قدمه، بالنسبة له ليس الاصبع الأول الذي قطع، فاصبع يده اليمنى الاوسط قطع منذ اربعين عاماً، كان يراقب عملية عصر زيتونه في البلدة، وبينما العجلات الحجرية الكبيرة تدور، أدخل اصبعه للتأكد من مدى عملية العصر، فاذا بالموس يسرق اصبعه، قضى كل هذا العمر بنصف اصبع، يده بقيت كما هي، ضرباتها ظلت بنفس القوة، ولم يعبه أحد على ذلك، ولم يشعر يوماً بنقص في جسده.

* * * * *

قضى الوالد ليلته الأولى هادئاً، فلم يفتعل مشكلة مع طبيب،ممرض أو حتى مريض، لكن المرضى والمرافقين استغربوا تصرفه، إنها عادته في أن ينام نهاراً ويسهر ليلاً، فالحاج اسماعيل الذي تعود أن يصحو كل ساعة في الليل، يمسك عصاه، يدقها أرضاً، تخرج صوتاً يهز به قلب كل من كان يحاول سرقة مواشيه ومحصول زراعته، "يتنحنح" طوال الوقت، ينادي كما لو كان يرى أحداً، ينادي أن سيذبح كل من يجده حول بيته، ينام مرة أخرى ويفعل ذلك ثانية، هذه العادة لم يستطع التخلص منها وهو يعيش في المدينة وحين لم يعد له أرض ولا "حلال"، لكنه يفتح الباب، يحمل عصاه ويخرج، حاولت أن أمنعه بعدم الخروج فلم استطع، لم يقتنع، كان يهز رأسه ويتركني.

ما يقلقه ليست العادة فحسب، بل حاجته للتبول، فهو ومنذ أن أصيب بالسكري يذهب للحمام مرات عديدة في الليلة الواحدة، يشرب ماءاً كثيراً، ينام، يصحو من النوم ويذهب مسرعاً للحمام خشية أن يبول قبل أن يصله، وبما أنه ينام في النهار، فانه يبحث عن من يسليه في الليل، ينادي على أمي، يوقظها، يحدثها عن البلدة، بيت نبالا، الحارات، "طوش" الحمائل، الزرع، الغنم، السهول، المغائر، بئر البلد وكل شيء يذكره، ويفتعل صراعاً معها حول أن قرابة فلان بغيره هكذا

وليست غيرها، يروح يسلسل العائلات، كانت أحياناً تسمعه، أحياناً أخرى ترجوه أن يسمح لها بالنوم فتنام، حين يشعر بذلك يغني مواويله فيقلقها، يغني:

بيقولو محمد العابد حميتوا
محاور نار على قلبي حميتوا
عجب بستانكم عني حميتوا
أما للغير فتحتوا الابواب

وأنا لاعن عنات النخل بدواي
وجرحي غلب الحكام بدواي
وربي ما خلق علة بلا دواي
عجب علتي مالها دوا

ينام قليلاً، وحين يفعل ذلك يحدث نفسه، يصيح على فلان أن لا ينزل بالزرع، ينادي أسماء أغنامه، وهكذا فعل الليلة في المستشفى.

* * *

-٢-

تجمع أبناء عمي صباحاً في بيتهم، تداولوا خبراً يقول بأن خالهم في عمان قد توفي، هل يذهبون لحضور الجنازة أم يبقون هنا لمتابعة حالة عمهم؟! عمهم الان في المستشفى وهم يعتبرون أنفسهم أوصياء على حالته ما دام ابناؤه الكبار في الخارج، شوكت في الكويت، حسان في امريكا، ماهر في اسبانيا ونزهة في السعودية، البكاء تخلل احاديثهم، فالخال وقبل أيام من وفاته كان ينادي عمهم الحاج اسماعيل، هذا الذي ينام الآن في المستشفى، ينادي عليه: أين انت يا اسماعيل! تعال بعصاك، اهجم عليهم، تعال يا اسماعيل وانظر حالتي، ذبحوني يا اسماعيل، يريدون قتلي، إنهم يلتفون حولي، تعال انقذني، احمل الحجارة يا اسماعيل، انت وحدك من تستطيع الدفاع عني، يريدونني الآن أن أموت، انهم يمسكون بروحي، يخنقونني، لا أريد أحداً غيرك، اريدك أنت فقط، تعال عندي، أنا الآن بحاجتك يا اسماعيل، أنا من كنت اشاركك الدفاع والهجوم على اعدائك، تعال يا اسماعيل لتنقذني، لم يعد بي قوة استطيع الدفاع بها عن نفسي، لقد أخفت كل أهل البلدة والبلاد المجاورة، تعال يا اسماعيل أخف من يقفون حولي، من يريد قتلي، اسماعيل... اسماعيل... اسماعيل. بعدها توفي.

قرر ابناء العم أن يذهب اثنان منهم لعمان ويبقى الاخرون هنا، لكن الخلافات بين اخوي المتوفي ألغى الرحلة كلها، سمعت رفقة، زوجة عارف، اصغرهم سناً، سمعت القرار، اقتحمت عليهم الغرفة، وبعصبية واضحة وحزن عميق، وعيناها تغرورقان بالدموع قالت: انتم تحبون خالكم أكثر من عمكم، تريدون الذهاب لعمان وتتركون والدي الذي ينام في المستشفى الآن، نحن نعرف ذلك منذ دخلت بيتكم، افرضوا إنه ليس عمكم، لكنه والد زوجة عارف، هل تتركونه؟!! إنكم تنجرون لافعال أمكم، فهي التي أفسدت العلاقة بين والدي ووالدكم، تعاملونه على أنه أقل منكم، بالضبط كما يفعل والدكم، على كل حال فالواحد يعرف قيمته من خلال التعامل مع الآخرين، وها نحن قد عرفناكم، وعرفنا مكانتنا عندكم، عرفت قيمتي عندكم يا ابناء... عمي.

تدخل عارف وبحدة ظاهرة، قال: اذا كان والدك يعز عليك وعلى اخوانك، اذا كان اخوانك ما زال لديهم شيء من الضمير فليأتوا لزيارة والدك، واذا كنت تحبين أباك والحرقة عليه تصل لهذه الدرجة فاذهبي ونامي عنده بدل أن يساعده المرافقون في غرفته.

- وماذا فيها يا عارف إن ساعده من يقيمون في غرفته! هذا شيء طبيعي، أنا موافقة أن أرافقه، لكن ذلك سيكون عيباً عليكم انتم، إن نمت هناك أنا "الحرمة" فهذا عيب عليكم، بينما انتم الرجال لاتفعلون، انه عمكم، ليس بغريب عنكم، هذا حق عليكم.

- اكثر من عشرين سنة ونحن نهتم به، أين كنتم؟! أين كان اخوانك؟! كل منهم يعيش في دولة هو وأولاده، لا أرضاً أشتروا، ولا بيتاً بنوا، ولا مشروعاً هنا أقاموا، يقولون بأنهم يملكون فلوساً كثيرة، لم نرها، لم نحس بها، حتى لو ملكوا الدنيا بأكملها، ما داموا لم يفعلوا شيئاً هنا فانهم لم يفعلوا شيئاً على الاطلاق، كل مشاريعهم، كل بناياتهم، كل تعليمهم، كل ما يملكون ليس له عندنا أهمية أبداً، الشاطر من يجمع فلوساً ويبني في بلده، الشاطر من يأت بفلوسه ويقيم مشروعاً عند أهله، اخوانك لم يفعلوا شيئاً من هذا، أين الفلوس التي جمعوها؟! ليستغلوا هذه الفلوس الآن للاعتناء بوالدهم، فبدل أن

ينام في مستشفى رام الله انقلوه لمستشفى آخر، انقلوه للمقاصد، لهداسا، اين فلوسكم يا بنت الحاج اسماعيل؟! نحن نقلنا أمي وهي مشلولة. ونحن نعرف أنها ميتة لا محالة، نقلناها لمستشفى المقاصد حتى تموت هناك، نقلناها حتى ترتاح ضمائرنا، نحن فعلنا الكثير، فماذا فعلت انت واخوانك؟!

- كل ما يريده الله يصير، والله لو عرفت أن النقل لمستشفى آخر يفيده لانفقت كل الذهب الذي املكه في سبيله.

* * * * *

عند العصر، توقفت أمام بيتي سيارة "مرسيدس" بيضاء، ترجل منها ابناء اعمامي، فتحت الباب، دعوتهم للدخول، قال عارف: ماذا تفعل؟

- اتناول الغداء.

- لقد بحثنا عنك في كل مكان، لم نجدك في بيت والدك، لم نجدك في المستشفى، اين كنت؟

- تفضلوا بالدخول.

استدار عارف نحوهم وقال: ادخلوا، ادخلوا حتى نرى ماذا سنفعل مع عمنا.

- اين كنت؟

- كنت في العمل.

- وهل هناك اليوم عمل حتى الآن!

- نعم كنت أعمل. قلتها بحسم.

- ماذا ستفعلون مع الختيار؟ لقد كنا عنده، مكثنا هناك اكثر من ساعة ولم تأت.

- كنت سآت عندكم في البيت لاستشارتكم، حسناً فعلتم بمجيئكم، لقد ارحتموني.

- وماذا ترى الحل؟ ماذا باستطاعتنا عمله مع عمي الحاج؟

- بالأمس أدخلته المستشفى، لامه الطبيب على هروبه في المرة

السابقة، وفي النهاية قبل إدخاله مقابل موافقته وموافقتنا على اجراء العملية، سأتصل باخواني ، ما رأيكم؟

- هل تعتقد بأنهم سيأتون؟

- طبعاً.

- هل سيقطع الطبيب اصبع قدمه؟

- ربما قدمه أو حتى ساقه.

اصيب الجميع بالدهشة، التقت نظراتهم، وقالوا: له.. له.. له.

قلت: وهل ترون حلاً آخر؟

- نذهب للطبيب ونسأله، ونحاول أن يقطع أقل ما يمكن من رجله.

قال عارف: لا اخفي عليكم سراً، أنا لا أرى أن هذا الطبيب لديه الكفاءة الكافية.

- اتعرف طبيباً أفضل منه؟ سألت.

- أنا أعرف كل الأطباء، كلهم أصحابي، الدكتور أكرم لايعلى عليه، والدكتور أسعد أفضل الجميع.

- أنا أرى أن الدكتور درويش أفضل، سأزوره، هو من يعالج والدي، إنه صديقنا، سأطلب منه تحويلاً لمستشفى "المطلع" على الأقل. قال آخر.

- لكن هؤلاء ليس لهم علاقة بمرض الوالد، انني احترم كل هؤلاء أشد الاحترام، لكنهم أطباء عظام وباطني، الوالد، عَمَكم، مرضه سكري وغرغرينا، وعملية قطع رجله لايلزمها تخصص عظام، يلزمه تخصص أوعية دموية، وهذا التخصص موجود في مستشفى رام الله، إنه الدكتور شاكر.

- ومن قال لك أن الدكتور اكرم أقل من غيره معرفة؟

- لا أحد يقول ذلك، كَل طبيب في تخصصه، لكنه فقط ليس له علاقة بمرض الوالد.

رد ملوحاً بيديه: أنا متأكد مليون في المائة أنه أفضل من مستشفى رام الله.

- حتى لو كان كذلك، وهذا غير صحيح، فبسبب قرب المستشفى من

بيت الوالد ولاسباب أخرى منها أنه يمتلك تأميناً صحياً حكومياً، وأن الأطباء يعرفونه ويعرفهم، فأنا أفضل هذا المستشفى، من ناحية أخرى لانريد أن نغلق باباً قد نحتاجه بعدها، ما رأيكم؟

- طبعاً، لكن علينا أن نسأل أولاً. أجاب آخر.

- ساراك إذاً عند عيادة الدكتور شاكر بعد نصف ساعة، اذا وجدت باب العيادة مغلقاً فكل واحد منا في طريقه، بعدها أنت حر، اذا كنت تريد أن تذهب لزيارة والدك، والدتك، اصحابك... هذا شأنك، قالها بنوع من العتاب المتحدي، قالها وأشار بيده، أدار ظهره وخرج.

أصبت بامتعاض من طريقة نقاشه، عارف هذا يعتقد أن لا أحداً يفهم الأمور اكثر منه، يحاول أن يعطي انطباعاً بأنه الاكثر حرصاً، يريد أن يولي نفسه مختاراً علينا، بل على الجميع، هو لا يعرف مكانه بالضبط، هل يتعامل مع الشباب الصغار والمتعلمين منهم؟! فسنوات عديدة تفصله عنهم، أم هل يتعامل مع الكبار؟! انهم اخوانه، ويكبرونه بنفس فارق السن، حاول أن يقيم علاقة مع الشباب، جاءهم من فوق فواجه شباباً متمرداً في كل المجالات، التقاليد، الافكار، الثقافة والعلم فلم يستطع اختراقهم، أصبح اضحوكتهم، فهل يقبل أن يكون صغير الكبار؟! يجب أن يصل بسرعة، قرر أن يقتحم عالم الكبار من فوق ايضاً، يجب أن يولي نفسه مختاراً عليهم، يتكلم كثيراً، يحاور الطبيب في الطب، المعلم في العلم، المهندس في الهندسة، وبغض النظر عن ما يقوله يخرج مقتنعاً بانه علمهم كيف يعملون، جر الأقارب لعلاقات كثيرة بنفس القدر الذي جرهم فيه لمشاكل كثيرة، جر الأقارب لحل مشاكل بين أناس لم يهتموا بهم من قبل، فهو يعمل سائقاً ويعرف الكثيرين، هذا هو عارف، لم يترك مجالاً للكبار للادلاء برأيهم، وأراد هذه المرة أيضاً أن يشعرني بأنه خرج منتصراً، فأي حديث يجريه يود تحويله لمعركة، قد لا أفهمه في سياق الحديث لكني افهمه بعدها، واذا أدليت له بمديح فانه ينهال عليك بمدائح غيرك له، دائماً يقف في الصف المعارض، واذا سار الحديث بعكسه انقلب مزاجه وترك الجلسة، واذا وجد أن لابد من الانجراف مع التيار فانه يتبناه بقوة ليقنع

الاخرين بأن الفكرة من ثنياته.

* * * * *

تلك الليلة، اخبرنا المرافقون والممرضون والأطباء أيضاً أنها مرت بصعوبة على كل من بالمستشفى، كان مرض الوالد يزداد حدة وشراسة، بانت معالمه الأولى، قدمه اخترقها السواد، صار من الصعوبة المشي عليها، عاش حالة غيبوبة متقطعة، لم يتحمل إبرة المغذي بيده، إعتبرها "كلام فارغ" رغم أن الممرض بذل جهداً في البحث عن عروقه، إلا أنه ظل يعبث بها، حاول التخلص منها، لم يتحملها، شدّها بيده، أمسك انبوبها بيمناه وشدّها، انتزعها، ذهب للحمام متثاقلاً وحين عاد لم يعثر على سريره، خرج من باب الغرفة والدم ينزف من قدمه، أسرع بعض المرضى والمرافقون نحوه، أعادوه للسرير، أخبروا الممرض وحين جاء، ولئلا يعبث بابرة المغذي، أعطاه الممرض إبرة مهدىء في آليته، غاب عن الوعي، صار يحلم، تخيل أشياء لم تحدث، حلم بأن من في الغرفة كانوا يمارسون اللواط معاً، وأن واحداً اقترب ليحاول معه، استيقظ من النوم، استجمع كل قواه، حمل عصاه، راح يسب ويلعن ويتقدم نحوهم، هربوا الى الممر، لاحقهم، سب ولعن بأعلى صوته، هدد إن أمسك بأحدهم سيقتله، قال: أتحسبوني مثلكم! أتمارسون اللواط معاً، وتريدونني الآن؟ ألا تعرفون من أنا؟ أنا من لم يتغلب عليه كل أهالي "بيت بنالا"، هل اعتقدتم بانني ختيار؟! احضروا لي كل أهالي بلداتكم، والله لاكسر رؤوسهم جميعا. هرب المرضى للغرف، أقفلوا ابوابها في وجهه، لحق الممرضين، صاحوا فيه دون فائدة، اقترب منه ممرض جاءه من الخلف، أمسك به، حدثه بلطف، واعاده للسرير.

* * *

-٣-

أول مرة أحاول أن أقضيها في المستشفى، أقضي ليلي فيه، غرفة واسعة بثمانية أسرة، أول غرفة تقابلها وأنت تصعد السلم، الغرفة ٣٠٢ في الطابق الثالث، معظم مرضاها ممن تجاوزوا الستين وأربعة مرافقين يجلس كل منهم بجانب مريضه، اتخذت من احد المقاعد مجلساً، الوالد ينادي، يطلب مني أن أساعده، يريد النزول عن السرير، وقفت، اقتربت منه وسألته: الى أين؟

- ابني الآن ينتظرني، قلت له أني سأعود للبيت، يجب أن أعود الآن.
- الأفضل لك أن تنام.
- قلت لك أرجعني للبيت. قالها بحسم.
- انتظر قليلاً. وربت على كتفيه وجلست.
- تعال يا حيوان، افرض انني حيوان، "كلكوتي"، طلبت منك أن تعيدني للبيت، قم ساعدني بسرعة.

قطع الحديث أحد المرضى، يدعى أبو محمد، اجريت له عملية "بروستاتا"، يقول لابنه المرافق: افرض انني حمار، لماذا تربطني هكذا؟ اذ أن قدميه وكلتا يديه كانت قد ربطت بالسرير حتى لا يتحرك ويؤثر ذلك على العملية.

الوالد ما زال مصراً على النزول عن السرير، انزل قدميه، حاولت منعه، أمسكني من كلتا يدّيّ، حاولت منعه، شدني بيده وضربني باليد الأخرى، ضربني بقبضته وصرخ في وجهي: ابعد عني.

- اين ستذهب حتى أساعدك؟ محاولاً امتصاص غضبه.
- اتركني وسترى الى أين سأذهب، واذا ما وقعت في بئر لاتخرجني منه. قالها بنوع من التهكم.
- هذا هو مكانك. محاولاً حسم الأمر.
- "يلعن عمك على خالك".

ضم قبضته، حاول أن يضربني، أمسكت كلتا يديه، أرجعته ثانية للسرير بعدما أنزل قدميه، أنزلها مرة أخرى، كلما أقتربت منه صاح بي، جاء المرافقون لمساعدتي دون فائدة، احضرت له ماءاً ليشرب، وعاود الكرة مرة أخرى.

تطوع أحد المرضى لاخبار الممرضة، ذهب مسرعاً، لحظات فاذا بها تأتي بلفافات بيضاء تحاول ربط اطرافه، أصبت بالدهشة، قلت لها: لو سمحت، توقفي، هل أنت مجنونه! أتحسبينه أبا محمد؟! والله لو وجد نفسه مثل جاره سيموت حالاً.

- وما العمل؟! قالت باستنكار.
- هذا شغلكم، افعلي ما ترينه مناسباً الا ربطه.

أمسك بابرة المغذي، شدها، سال ماؤها على جسده، صرخت به أن لا يفعل، أمسكت بيده وأعادتها كما كانت، أمسك بها ثانية وبحركة متحد قطعها، وقفت الممرضة قليلاً، ثم قالت: سأعطيه إبرة لينام.

ذهبت لاستشارة الطبيب، فاذا بها تأتي ثانية، ممسكة بابرة صغيرة ألقت بمحتوياتها في ابرة المغذي بعد وصلها، فاذا به ينام، فرحت كثيراً، حملت سيجارتي واتجهت نحو الممر، جلست مع بعض المرافقين، تحدثنا عن الوالد وحالته الغريبة هذه، فأنا لا أعرف ما الذي أوصله لهذه الحالة، يومان فقط مرا في المستشفى ولم يعد يذكرني، أنه يخاطبني كما لو كان يراني لأول مرة، يتصور الآن أن كل الناس اعداء، أدخل المستشفى رغماً عنه، قبل باجراء العملية ولم

يقبلها في نفس الوقت، يبدو أنه يعيش تناقضاً ليس من السهل حله، فهل يعيش بواقعه الحالي: مريض ويجب قطع رجله حتى يعيش برجل واحدة، أم يعيش بنفسية الحاج اسماعيل الذي عارك الحياة طويلاً ولم تغلبه قط، لم يكن يحتاج احداً ليساعده، واجه الحياة بمفرده، بعضلاته، لم يخش الموت بل كان الموت يخشاه، مات الف مرة واستمرت حياته، فعندما كان في الثلاثين من عمره، جاء أحد أقاربه مربوط اليدين والحجارة تتقاذف رأسه وجسده، جاءه وهو يصيح: اسماعيل.. اطلع يا اسماعيل، يريدون قتلي. حمل عصاه وخرج، أمسك بها ترساً وقذفهم بالحجارة، تراجعوا قليلا، صعد الرجال من الجانب الآخر على الأسطحة، وباتت الحجارة كرشق المطر، تأتيه من كل جانب، والنسوة يصحن ويلقين بالسباب ويناولن ازواجهن الحجارة، حجر أصاب رأسه فوقع أرضاً، حالة من الغثيان أصابته، لم يعرف بالضبط إن كان نائماً أم صاحياً، لم يعرف إن كان يحلم، سمع احدى النسوة من الجانب الآخر تقول: اهجموا عليه، تخلصوا منه، يجب أن يموت الآن، ودعت إمرأة من خلفه قائلة: "يا الله يا سيدي عبد القادر تقيمه"، سمع صيحات الرجال تقترب منه، والحجارة تتساقط عليه، وامرأة تصيح: اقتلوه. قال في نفسه: من يقتلني! هل أقتل بالحجارة؟ هل أقتل وأنا نائم؟ أيريد هؤلاء الانذال قتلي؟! سيدي عبد القادر سيساعدني. عصاه ما زال ممسكاً بها، فتح عينيه، لاحظ قدمين أمامه، تطلع الى الأعلى فاذا به يحمل حجراً كبيراً يريد اسقاطه، جره من رجله بعصاه، وقع، نهض الحاج اسماعيل، اتبعه بضربة اخرى برجله اليمنى، وقف على جسده،وصاح: والله لأذبحن اليوم عشرة منكم.أصابهم الهلع، لحقهم، أوصلهم "المطامير" وعلى البيادر دارت المعركة، لوحده واجههم، لوحده طردهم وهو في النهاية من صفح عنهم. والدي هذا لم يعد يعرفني، لم يعد يعرف أحداً،لا يعرف أين هو الآن، مسكين الحاج اسماعيل، لقد كبر، لقد مرض، والمرض أعياه، السنوات اكلت عمره، وها هي الآن تأكل عقله، الحاج اسماعيل لم يعد الحاج اسماعيل، مسكين.

ناداني أحد المرافقين بأعلى صوته: ابوك يحاول النزول عن السرير.

ركضت للغرفة، اقتربت منه وسألته: ماذا تريد؟

- انزلني.

- أين ستذهب؟

- هناك، اذ انني في هذا الوضع أسد الطريق، انقلني هناك حتى أفسح مجالاً للمرور.

- لكن الممر هناك يا والدي، إنك لا تسده، انه بعيد.

- اذاً ابعد عني، قلت لك انني في الطريق، دعني انزل.

طلبت منه أن يستريح قليلاً، سحبت السرير خلف الباب، سألته إن كان قد أتاح مجالاً للمرور، فهدأ.

ابو محمد نادى ابنه: يا ولد، تعال فكني.

- وماذا ستعطيني؟

- الصلاة على النبي.

- لا والله، اكلت وشربت!

- فكني حتى استريح.

- وهل تعطيني مقابل ذلك أرضاً اكثر من اخواني الآخرين؟ قالها مازحاً.

- ابعد عني يا ولد.

- أريد أن أنام، ربطت كل جسدك حتى الآن، لم يبق سوى لسانك لا أعرف كيف أربطه.

- أتريد أن تمنعني من الكلام يا ولد! يجب أن أتكلم حتى أخفف من ألمي، تعال غسل لي.

- أأغسل لك خصيتيك؟

- لا يا ولد، بل كتفي.

ضحكنا جميعاً، صحى المرضى النائمون، شاركونا في الضحك، سألته عن بلدته فاذا به من العروب، قضاء الخليل، أكمل ابنه: صحى بعد خروجه من العملية بعشر دقائق، أراد أن ينهض من سريره، خشيت أن يفتح جرحه، لذلك ربطته، احضرت لفافات من القسم وربطت يديه بطرفي السرير وقدميه بالطرف الآخر، وعند ركبتيه ربطته بحزامي،

وصلته بوسط السرير، ورغم ذلك يحاول ثني ركبتيه لتمر من تحت الحزام.

قطع الحديث والده، ابو محمد، قائلاً: خذني على الحمام يا ولد.

- نم واسترح، هذا أفضل.

- ياولد، أخشى أن أعملها تحتي.

- اعملها، أنا سأنظفها وأنظف جسدك.

- آخ يا ولد، ساعدني، فكني، فك قيودي.

- اسمع يا ختيار، زوجتك هي من طلبت أن أربطك. قال مازحاً.

- أمك؟

- نعم، أمي الآن مرتاحة منك، ما رأيك أن نزوجك بأخرى؟

- يا ولد، أنا لا استطيع أن أتزوج نصف واحدة.

- لاتخف، لقد تعالجت الآن، تستطيع أن تهد الحائط.

- الم يؤذن بعد؟

* * * * *

استأنف الوالد حديثه هو الآخر، أريد أن أقوم وأتمشى، أولادي سيسألون عني، يقلقون علي، أريد النزول عن السرير والخروج من المستشفى، ابني الآن ينتظرني، ملابسي كلها معه.

رَبتَ على يديه وصدره، مسحت على رأسه، فقال: لقد قطعوا مشط رجلي وتركوا المهم، هؤلاء لا يعرفون ماذا يفعلون.

- لا، انهم لم يفعلوا شيئاً بعد. قلت.

- اذن اين ذهب شوكت، لقد انزلقت قدمه فوقع عند المحاجر ونحن نغادر بيت نبالا، رجله آلمته، حملناه وأخذناه معنا.

- شوكت في الكويت وسيأتي لزيارتك، الآفضل لك أن تنام.

* * * * *

ثلاث ساعات نمتها في البيت، فأنا لم أنم في المستشفى دقيقة واحدة، بقيت هناك حتى الفجر، ايقظني عارف ليسأل عن عمه، ما هذه الحالة الغريبة من العلاقات، فأنا لا استطيع ترك المريض ولا الأقارب، لا استطيع النوم في بيت الوالد ولا الذهاب لانام في بيتي، والساعة الآن تقترب من الثانية عشرة، إنه موعد الزيارة، الواجب يحتم علي الذهاب هناك، الأقارب سيأتون ويسألون عني، هؤلاء الكبار لايثقون بأن الأجيال الشابة ستخلص لابائهم، كما فعلوا هم، يقولون ذلك في كل محفل: هل يكون الأولاد كما الآباء؟ فنجيب في سرنا: في الاخلاص والوفاء والاحترام والقيام بكل ما يجب أن نقوم به نعم، لكن في الاذعان لا، هم لايدخنون أمام آبائهم بينما نحن نفعل، هم لا يتدخلون في أحاديث الأكبر منهم سناً بينما نحن نفعل، هم يلبسون ما يُرضي آبائهم، بينما نحن نلبس ما يرضينا، الاحترام لا يكون بالسيجارة أو بلون قميص أو حتى التدخل في حديث يجري، الاحترام شيء مختلف كلياً عن الاذعان، والاحترام أبداً لا يكون بترك الوالد ينتهي من ضرب ابنه حتى ينهي ذلك وحده، بل هو شيء آخر له علاقة باحترام الذات أيضاً أمام الكبار والصغار، ولن أندم إن قلت لوالدي أن ليس من حقه أن يتطاول علي، فمعرفة الحق وعدم تجاوزه هو الحد الفاصل بين الاحترام والاذلال، لن يحترمني اذا لم أرغمه أنا على ذلك، من حقي أن أعيش وزوجتي في بيت مستقل، من حقي أن أعيش في عالمي كما من حقه أن يعيش في عالمه.

تسائل عارف إن كان اخواني معنيين بامر والدي اذ قال: أليس هذا أباهم أيضاً! لماذا تتحمل كل هذا وحدك! ألم يحن الوقت ليأتوا لزيارته! من لا يريد أن يأت الآن وهو مريض، وهو ما يزال حياً، لا نريده أن يأت بعدها، اتصل بهم واخبرهم بذلك.

نعم، الوضع وصل حده واخواني يجب أن يروه، وفي هذا الوقت بالذات، اتصلت بحسان في امريكا، قال: سأتصل بشوكت في الكويت ليأتي، سآتي فقط اذا توفي. اتصل بشوكت، اخبره الأخير بوجوب أن يلتقوا معاً في رام الله، وإلا حفرت الألسن في الظهور، اتصلت بماهر في

اسبانيا، علامات القلق كانت واضحة من خلال عباراته، قال: سأكون عندكم بعد أربعة أيام، هل تعتقد بانني سأراه حينها حياً؟!

احسست انني لست وحدي، ازدادت ثقتي بنفسي، لست الوحيد الذي أقاوم ما يحدث في هذه الحياة، هذا هو ماهر، يعيش في اسبانيا منذ عشرين عاماً، كلماته قوية، متينة، تحمل مشاعر العطف، عشرون عاماً في بلاد الاندلس لم تبعده عنا كثيراً،هو طبيب أولاً،سيتفاهم مع الاطباء، وثانياً وإن لم يساعدني في مرافقة الوالد ليلاً فانه سَيَصَد هجمات الاقارب المستمرة، منذ صغره وحتى سفره وقبل الحرب وهو يصد هجات والده، قضى أياماً مشرداً في الجبال ومن بيت لبيت، تصدى لمدراء المدارس حين طلب الوالد منهم أن "يُربوه" على طريقتهم، لكنه لم يذعن لأحد، سمي بالغزال لان احداً لم يستطع اللحاق به ركضاً، لكنه الأسد حين يحاول أحد اذلاله، فعندما كان طالباً في التوجيهي، انزوى في احدى الغرف، مشعلاً مصباح الكاز، جاء والدي وأخذه من عنده حتى يسهر هو ورجال القرية كعادته، وعندما أراد تخليص المصباح منه وقع أرضاً فكسرت يده، تدخلت أمي كعادتها حتى "يُجَبِّر" والدي الكسر في يمينه، ورغم أنه يفعل ذلك للآخرين رفض، دار من بلدة لبلدة، ومن شيخ لشيخ، الأول "يُجَبِّرها" والثاني يكسرها ليعيد ربطها مرة أخرى، وامتحان التوجيهي يقترب يوماً بعد يوم، كتب الاجابات بيده اليسرى ونجح، أراد والدي أن يرسله للسعودية حتى يعمل هناك مدرساً، رفض، اختار الذهاب لاسبانيا، توسط الكثيرون حتى يذهب معه للقنصلية الاسبانية في القدس، وحين ذهب، رأى بركة سباحة، تسبح فيها بنات القنصل، قال في نفسه: اذا كفلته الآن فسيضيع بين امثال هؤلاء، فالواحدة منهن "تُطَيِّر" المخ، تركه وخرج الى أن كفله شوكت، ماهر يريد أن يأتي الآن لزيارة والده المريض رغم أنه قد أرسل قبل سنة واحدة فقط رسالة يهدده فيها: والله يا حاج اسماعيل لو سمعت أنك مسست أمي في شعرة منها لاتيت اتخلص منك وللأبد، انت تعرف انني واجهتك قبل سنوات عديدة، لكنني الآن سأقضي عليك، انت تعتقد بأن كل الأمور تحل بالعضلات، اذا كان كذلك فساواجهك الآن بالعضلات

وغيرها.

يومها هدد وتوعد، لم يكف عن ضرب الوالدة، ولم يكف عن وصف ماهر بالولد العاق، ففي احدى المرات وحين ضرب أمي، تصدى له وهو ممسك بعصاً ليحول فيها بين يدي أبي وجسم أمي قبل أن يهرب من البيت، وها هو الآن يسأل ان كان يستطيع رؤيته أم لا، سيتصدى للأقارب أيضاً إن حاولوا التطاول، فذاك يفضل مستشفى المقاصد، آخر يفضل "المطلع"، هداسا، تل هشومير، الأقارب يعتبرونني ولداً، سيحسب الأقارب لنا وزناً اكبر، لم أعد بحاجة لاستشارتهم، المريض والدنا، نحن من نقرر مصيره، هم ليسوا أكثر حرصاً منا عليه، هم يزورونه فقط، بينما نحن من نرعاه، فنحن من نسهر ولا نعرف طعماً للنوم، هم فقط يعطون إرشادات، لانريد ارشاداتهم، سيخرس عارف على الاقل، فهو يدعي أنه يعرف كل شيء، ماهر آتٍ سيساعدني في سَدِّ الثغرات الكثيرة التي لا استطيع لوحدي سَدَّها، لقد حكمت علينا الظروف أن نتشرد في اسبانيا، امريكا، الكويت والسعودية، أنا ابنه الوحيد هنا، وماذا ستفعل "رفقة" التي تعيش هنا، فنظراً لعدد أولادها والتزاماتها العائلية لا تستطيع مساعدتي كثيراً، هي فقط تشكل الجسر الواصل بيننا وابناء عمي، تستعرض ما قدمناه للوالد وتنقل لنا وجهة نظرهم.

لقد شاءت الظروف أن نعيش هنا في المخيم، ربما سيخجل اخواني من ذلك، لكنهم في النهاية سيقبلون بالأمر الواقع، الوالد هو السبب في ذلك، فعندما هاجر من بيت نبالا، كان اكثر الناس غنىً، الفلوس التي حملها لم يحملها آخرون، سكن قرية "بيت اللو" على بعد كيلومترات من "الخط الأخضر" وفي منطقة تشرف على الساحل، تُشرف على يافا واللد، رفض أن يستغل هذه الفلوس بشراء أرض وبناء بيت أو حتى بمشروع تجاري، انسحب من كل المشاريع التي ساهم بها بعد أيام، أما الأرض التي اشتراها شوكت باسمه فقد باعها بعد سفره مباشرة، بعد انتهاء الحرب وأثناء عملية الاحصاء السكاني، سأله الجنود: لماذا لم تَبنِ بيتاً يا حاج، قال: مازلت آمل بالرجوع لبلدتي، وهكذا ظل بدون أرض، بدون بيت وبدون عمل، جعل من بيته مضافة للمهاجرين ولأهل

"بيت اللو" أيضاً، كانوا يتسامرون ويستمعون للاخبار، بعد الحرب وبسبب الهجرة الثانية، اختار أن يسكن رام الله في احد بيوت "النازحين"، وظل يتنقل من بيت لآخر حتى استقر في مخيم قدورة، ظل المخيم مقره الأخير، فهو بين أبناء بلدته وما حولها: بيت نبالا، دير طريف، عمواس، الحديثة، العباسية واللد، الأقارب يلوموننا على أننا لم نَشتر أرضا ولم نبنِ بيتا أو نُنشأ مشاريعاً كما فعلوا هم، نحن ولاننا نعرف ظروفنا لانخجل من أن نسكن المخيم، من يخجل من سكنانا، بكل بساطة، لا نريده ان يزورنا.

* * *

-٤-

بين الصحو والنوم الوالد ينادي: يا حجة.. يا حجة، تعالي، لماذا لاتجيبيني؟ لماذا احضروني هنا؟ لقد وضعوا رجلي في الماء، لماذا؟! لا أعرف. فاذا بالممرضة تأتي، سمعَته، اضافت محتويات ابرة تحملها لانبوب المغذي، فقال لها: لماذا "تقزعيني"؟

- الله يسامحك يا حاج. قالت.

دخل أحد المرضى، يدعى "صلاح" يجر سريراً عليه أحد المرضى، المريض يجلس على سريره ممسكاً بيديه طرفي السرير، يلف رأسه بلفافات بيضاء تغطي جوانبه، أزاح صلاح سريره ووضعه مكانه، فاذا بأبي محمد يصحو، محمد صحى كذلك، سأل صلاح بامتعاض: ما هذه المزهرية التي احضرتها يا صلاح؟

- احضرت لكم زبوناً جديداً.

- والله الولد ولد، وهل يعمل صلاح في المستشفى؟! قال أحد المرضى.

فأذا بالممرضة تأتي، تلحق بصلاح، لاحظت استغراباً على ملامحنا، والاستنكار على وجوهنا ونظراتنا، قالت: لاتندهشوا مما يحدث، صلاح يقوم بمساعدتي وسينتقل لغرفة أخرى، فقال محمد لابيه: أترى ما

يحدث يا والدي، لقد احضروا لك رفيقاً جديداً. وقبل أن تخرج الممرضة قالت لنا جميعاً: انتبهوا لهذا المريض واحذروا منه، فهو دائماً يبصق على من حوله.

- وهل يعني هذا أنكم احضرتم راجمة صواريخ؟ تسائل محمد، وقام بربط ابيه من جديد والتأكد من أنه لايستطيع فك نفسه قائلا: يا والدي ساعدني، أريد أن أهرب قبل أن تصلني قذيفة، والله صدقت حين طلبت العودة للبيت.

- لا تخافوا، فالممرضة أعطته حبتين من المنوم. رد صلاح.

- وماذا نفعل عندما يصحو يا صلاح؟

- ستعطيه الممرضة حبوباً أخرى.

نام جميع المرضى والمرافقين ما عدا المريض الجديد، "المزهرية" والذي وصل قبل نصف ساعة من الآن، ينهض بين وقت وآخر، يَجُر بصعوبة بصقة من داخله ويلقيها على الحائط، يفعل ذلك ثانية، شعرت بالتقزز، لكن، ما العمل! يجب التعايش مع الأمر الواقع، فرشت حرامي، طويته نصفين، النصف الأول تحتي والثاني أتغطى به، جعلت من طرفه العلوي مخدة، حاولت أن أنام دون فائدة، ألقيت بنظري تحت الأسِرَّة، أراقب المرضى، راقبتَ ما يحدث، وما يحدث الآن خطير، قدما "المزهرية" في الطرف الآخر من السرير، على جانبه من جهة الحائط، يبدو جسده في حالة عدم اتزان، دققت النظر فاذا برأسه يميل باتجاهنا ببطء، توترت اعصابي، وقبل أن أنهض كان "المزهرية" يقع أرضاً على رأسه، أأذهب لرفعه؟! لا استطيع ذلك وحدي، وماذا لو كان رأسه مقسوماً نصفين! لقد سقط من ارتفاع متر ونصف المتر، أنا الآن لا أسمع صوته، سمعت فقط صوت وقوعه على الارض، سمعت صوت ارتطام رأسه بأرضية الغرفة، ببلاطها، فهذا الرجل بطوله وعرض منكبيه أحدث وقوعه صوتاً هَزَ أركان الغرفة كلها دون أن يتحرك أحد من مكانه، ماذا أفعل الآن!!؟ تلفت كل مرافق نحو مريضه ولم يلاحظ شيئاً قد تغير، أسرعت نحو الباب مناديا بأعلى صوتي أن مريضاً قد وقع، ركض الممرضون وركضت معهم أنا الآخر نحو المريض، اقتربنا

منه فاذا بلفافات رأسه قد نزعت والدم يسيل من احد جوانبه، نظرت إليه، دققت النظر فاذا بالمنطقة المحيطة بأذنه واذنه أيضاً ليس لها وجود، فالعملية كانت قد أخذتها، الدم يسيل، أصبتُ بحالة من الغثيان، لم أستطع ان ادقق النظر ثانية أو حتى الالتفات نحوه، طلب الممرض مني مساعدته، أمسكتُ بكتفيه بينما دار وجهي في جهة أخرى من الغرفة، جاءت الممرضة بالأدوية واللفافات، بدّلوا الشراشف، بدلوا لفافات رأسه، رفعناه للسرير وخرجنا الى الممر مقشعري الابدان مما حدث ومما رأينا، شعرت الممرضة بذلك أيضاً، اقتربت نحونا قائلة باشمئزاز: من لا يحتاج مرافقاً يطلبون له واحدا، أما من يحتاج...!! وذهبت.

دار حديث بين المرافقين عن ما حدث:

- كل ما حدث كان بسبب صلاح، هذا القواد.

- والله انني بالكاد استطيع تحمل عبء مريضي، فكيف بالآخرين.

- كل هذا شغل "ولدنة"، صلاح ولد، يدور من غرفة لأخرى، يغازل البنات جميعاً وهو يضع سماعات المسجل على أذنيه، هذه تضحك في وجهه، وتلك ترفضه، واذا جاءت زوجته استلقى وإياها على السرير أمام المرضى والأطباء والممرضين وحتى الزائرين.

- اسمعوا يا جماعة: لايقترب أحدنا من هذا المريض، يكفي كل منا ما عنده، يكفي كل واحد "بلوته".

- أنا ذاهب لأنام، لم أنم الليلة الفائتة.

- لقد احضروه هنا لأنه بلا مرافق، سيعتمدون على جهودنا، أما الغرفة التي ذهب اليها صلاح ففيها مريض بحاجة لمرافق، لذلك أخذوه هناك.

- والله مشكلة!! طوال النهار نعمل، وفي الليل "يا دوب" ننام لنلبي طلبات مرضانا.

- الواحد منا قرف مريضه فكيف بالآخرين!!؟

- والله لو دخل المريض على المستشفى وعلى هذه الغرفة مباشرة لقلنا على الرأس والعين، لكن لماذا يحضرون الآن مصيبة جديدة لهذه

الغرفة.

- الله يعين كل واحد على مصيبته.

- لو كان الدكتور عماد هنا لما رأيتم شيئاً من هذا.

نهض أحد المرضى، مقطب الجبين متوجهاً لغرفة الممرضين، وحين دخل، صرخ بهم: لماذا احضرتم هذا المريض؟ من أمركم بذلك؟ هل فعلتم ذلك بأمر الطبيب؟ ما اسم الطبيب الذي فوّضكم؟

- انت يا أخ ستغادر المستشفى غداً. اجابته الممرضة.

- ماذا تقولين؟! حلي هذه المشكلة الآن، هل تقبلون لو اخرجت سريري ووضعته في الممر؟! اجيبيني.

دخل أحد المرافقين الغرفة لتفقد مريضه، بينما "المزهرية" ينادي بأعلى صوته كي تحل يداه من السرير، صرخ به: حل عني، الواحد فينا "يا دوب طايق حاله".

- ماذا تقول؟ الستم بشراً؟ تعالوا فكوني يا جماعة.

خرج المرافق، قال له أحدنا: يا أخ، يا رجل، اتركه، لاتجرح شعوره، ما ذنبه! هذا مريض، هذا ذنب الممرضين الذين لا يريدون القيام بواجبهم.

"المزهرية" ما زال ينادي بأعلى صوته: أين الكبريت؟ أعطوني "ولعة" يا جماعة.

- الدخان ممنوع.

- اعطني كبريت بسرعة.

- اذا كنت مصراً على التدخين، أخرج من الغرفة، ممنوع التدخين داخلها.

- كل الناس تدخن داخل الغرف، "هات ولعة".

- داخل الغرف يوجد مرضى، الغرفة ليست شارعاً.

- الا تقدرون الناس؟ هات كبريت.

جاءت الممرضة، طلبت منها أن تعيد الوالد للنوم، أعادت تركيب الابرة التي فكها، طلبت موافقة الطبيب على اعطائه جرعة مهدىء، سألها: ألم تعطوه من قبل؟

- اعطيناه، لا أدري ما به، هل هو من مدمني المخدرات؟!

- لا، وحتى لا يدخن.

لولا والدي لما اتيت لهذه الغرفة مطلقاً، ولما رأيت كل ما أراه الآن، انني مجبر على ذلك، لقد ظل والدي رغم كل سيئاته رجلاً محترماً بين الناس طيلة حياته، أنني أرافقه الآن حتى احافظ على هذا الاحترام بقية عمره، كم بقي من عمره؟ لا أدري، أنا اصنع احتراما لي أيضا، لكن، يمكن أن افعل ذلك بألف طريقة، ان القرف الذي أعيشه والتوتر الذي أحس به كله بسبب هذا الوالد، لقد عانيت وعانينا منه في أوج قوته، وها نحن نعاني من أجله في أواخر أيامه، ماذا أفعل؟ يجب أن أصبر، أبو محمد يرافقه ابنه ويقول له بأن يعملها على نفسه وسيغسل له كل شيء، بينما "المزهرية" يعيش وحده رغم حالته الصعبة، المسأله ببساطة تحتاج قراراً، ولا استطيع سوى أن أقرر البقاء معه وتحمل هذيان أبي محمد والمزهرية ووالدي أيضاً، إن "نبرة" حديث "المزهريه" تشبه بالضبط "نبرة" الحاج اسماعيل، انظروا الى عرض منكبيه وطوله، لابد أنه كان رجلا مثل أبي، إنهما ليسا على الاطلاق مثل أبي محمد المتوسل، لكن الكبر يغير من اللهجة أيضا، فحتى لهجة التوسل تحمل في طياتها أمرا، والدي يريد ماءاً، أبو محمد يريد أن تحل يداه ورجلاه، "والمزهرية" يريد كبريتاً ليشعل سيجارة، أبو محمد لم يحاول ولم يستطع أصلا التخلص من قيوده، حتى وهو يسب ابنه يفعل ذلك بطريقة محببة وخجلة، بينما الوالد "والمزهرية" يريدون كل شيء رغما عن الآخرين، انظروا الى المزهرية عندما وقع، لقد كان يبحث عن كبريتة بالتأكيد، وانظروا الى الحاج اسماعيل الذي لا ينتظر قرارا مني بالنزول.

آه، النعاس يرهقني، لا امكانية للنوم، لكن يجب أن أنام، بالأمس لم أنم سوى القليل، مصيبة ستحل بي إن بقيت صاحيا، اذا كان أحدنا قد وقع في مصيبة فيجب أن لا يصبحا اثنين، فرشت "الحرام" أرضا، أغمضت عيني، سرحت في أشياء كثيرة، جلت على افكار متعددة من هنا وهناك، تقطعها صرخات وآهات مريض من هذا الجانب أو ذاك،

تصنع فواصل ونقاطاً لافكار أتت لتوها، صحوت على وقع اقدام، أو هكذا خيل اليّ، الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، نظرت حولي فاذا بالوالد قد أنزل رجليه أرضاً، قفزت مرة واحدة عنده، أمسكت به، سألته: ماذا تريد؟

- الحمام.

- هل احضر لك ابريق البول؟

- أريد الذهاب للحمام، لا أريد ابريقاً.

طلبت من محمد مساعدتي لايصاله هناك، أمسكت بابرة المغذي واوصلناه، تاركا وراءه آثار قدم باللون الأحمر الباهت، كان جسده كله مبللاً، ملابسه، فراشه تنبعث منها رائحة بول مخمر، رفعت دشداشته وأجلسته على المرحاض، قال: أخرج من عندي.

ذهبت مسرعاً الى مركز القسم، طلبت من الممرضة غطاءا نظيفا، قالت: ابحث في الخزانة.

- الخزانة فارغة.

- سآتيك بعد قليل.

ركضت مسرعاً، فتحت باب الحمام، فاذا به ما زال جالساً، أسرعت بمساعدة محمد المرافق بتبديل الغطاء من احدى الأسِرّة الخالية، اقترح محمد أن أذهب لأراه، حملت دشداشة نظيفة وأسرعت نحو الحمّام، فتحت بابه فاذا بوالدي ممدد على أرضه، مبلل بالماء والدم ينزف من فمه وتحت عينيه، صحت على محمد بأعلى صوتي: ساعدني. جاء، اغلقت مفتاح الابرة، فككتها، أجلسته على مقعد أحضره، حدقت به، آه، انه يتنفس، الحمد لله، كيف تحمل هذه الضربات؟! لو كنت أنا لما تحملتها، نزعت عنه ملابسه وألبسته غيرها، حملناه، وضعناه على السرير، نظفت جراح وجهه بفوطة مبللة بالماء وسألته بعتاب حزين: لماذا لم تنتظرني يا والدي؟!

- وقعت، ماذا أفعل؟ طبلت في الحيطه".

كانت قدمه قد صنعت طريقا معبدا بالدم الباهت، يجب أن انظفه، اذا تركته ربما ينظفونه غدا، لكن، هل انتظر للغد؟! أريد أن أنام، وأين

أفعل ذلك؟! لابد من تنظيفه، هؤلاء العاملون لا يقومون بواجبهم كاملا، هل يفعلون ذلك بقدر رواتبهم التي لاتساوي شيئا؟! ها هم يتصايحون في الغرفة المجاورة، هم الان يتابعون مباراة كرة القدم بين المغرب وألمانيا الغربية في المكسيك، لقد اصبحنا نحن الممرضين، لقد ناديت لتوي أحد الممرضين ليعيد تركيب الابرة، حين جاء قال: اذا كان أبوك يفكها كل ساعة فلنفكها نحن. فكها وذهب.

فتشت في الحمّام عن "مكشطة"، فاذا بي أجد واحدة مهترئة، تدور حول عصاها، لم أجد "ممسحة"، فبماذا انظف؟! أأنظف الحمام نفسه أم الغرفة! كل شيء مقرف، المرحاض لا أتحمل أن أبول فيه، المغسلة مغلقة المصرف وماءها مختلط بالاوساخ والصابون يطفح من جنباتها، الأرض مغطاة بطبقة من المياه، تبعث رائحة كريهة، وأرض الغرفة مليئة بالأوساخ وبقايا الابرّ والأكياس والمحارم الورقية، أمسكت الابريق، ملئته بالماء وسكبت على أرض الغرفة، على نصفها، المساحة الواصلة بين سرير والدي والحمّام، وبدأت أجر المياه نحو الحمّام، نظفته بالقدر الذي استطيع، وانتظرت في الخارج حتى تجف المياه.

اصابتني حالة من تأنيب الضمير، كيف تركته؟ لكن هل كان بامكاني ان أفعل اكثر من ما فعلت؟ صحيح انني تركته، لكن ذلك حدث من أجل أن ينام على فراش جاف ونظيف، لقد كنت انتظر أن يصحو لأغير له ملابسه، وها هي الفرصة قد أتت، حاولت استغلالها، لقد كان ذلك يتطلب جهود اثنين أو ثلاثة خلال خمس دقائق؟ هل كان بامكاني وحتى بمساعدة صاحبي عمل ذلك؟ يجب أن أخبر الجميع بما حدث، صحيح بأن الضربات هذه كان من الممكن أن تكون قاتلة، لكنه ما زال يعيش بلحمه ودمه وعظامه وروحه، يجب عند اخبارهم بما حدث أن أروي القصة كاملة، وليحكموا بعدها بأنفسهم، لامجال لاخفاء شيء عنهم، فالجرح واضح، سيسألونني عنه، عندها يجب أن أجيب، أنا الآن متهم أمامهم، أمام الأقارب، سيقولون: مقصر فليقولوا، لكن هل كان بامكان أي واحد منهم أن يفعل أكثر من ما فعلت، اذا كان كذلك فليخبرني، سأسمعهم وسيسمعوني بالضرورة أيضا، حتى لو لم يصدقوني فهذا ما

حدث.

حاولت أن أنام ثانية، فالتعب يهد جسدي كله، وتأنيب الضمير يؤرقني، فاذا بالطبيب يأتي، اقترب من محمد بعد ما دخل الغرفة لتوه بعد غياب، القى التحية، اقترب من مريضه، تفقده وقال: هل انت مرافق لهذا المريض؟

- نعم.
- يجب أن لاتفارقه، فأقل حركة منه نخسر كل ما فعلناه.
- وهل سبب مجيئك يا دكتور انني ذهبت لمشاهدة المباراة.
- نعم، فنحن وافقنا على وجودك لتكون مرافقا، والا فما فائدتك.

* * *

ساعة! ساعتان! لا أدري، فلا استطيع تحديد عدد الساعات التي نمتها بالضبط، اذ أن آخر مرة نظرت فيها للساعة كانت الثالثة والنصف، وها أنا اصحو، الساعة الآن الخامسة، حاولت اقناع نفسي أنني نمت أكثر حتى أشعر بالراحة، ما هذا الهذيان الذي أصابني؟ الحقيقة شبه ساطعة، فأنا نمت ساعة ونصف على أبعد تقدير، انتظرت وصول أمي، هُيء لي أنني أسمع صوتها، نهضت، لملمت فراشي، وضعته في كيس، لبست حذائي وجلست منتظرا، لم تأت، وقفت قرب الدرجات، نظرت نحو الطابق الأرضي، لم أر شيئا، نزلت بالمصعد، بحثت عند باب العيادة الخارجية، لم أجد أحدا، الجميع نائم، المرضى، الممرضون والأطباء، المستشفى موحش، كل شيء فيه ساكن، أنه أشبه بالقبر، تسمع أنات المرضى أو صيحات طفل فتؤنسك، صوت محرك سيارة يمر من بعيد، عواء كلب في الساحة الخارجية، صياح الديكة يعلن عن فجر جديد، لكن لا مجيب، فأمي لم تأت بعد، نزلت ثانية وثالثة، حملت جسدي بما تبقى لدي من طاقة، يجب أن أصل البيت مبكرا لاعود في العاشرة أسأل عن العملية وأعطي الدم، جلست على الدرجات، فاذا بصوت جرس يقرع في الطابق السفلي، نزلت بسرعة، أثناء نزولي كنت اسمع صوت صياح بين رجل وأمرأة، إنها أمي، أسرعت أكثر، فاذا ممرض يريد منعها من

الدخول، اقتربت منه وبعصبية حادة قلت: ماذا تريد أنت؟

- ممنوع دخولها.

- انها مرافقة وستدخل.

- لايهمني، الجميع نائم.

- لقد قضيت الليلة كلها صاحيا، وهي ستحل مكاني.

- ممنوع دخولها الا في المواعيد المحددة، في السابعة صباحا.

- اسمع: هذا مريضكم، أنتم لاتعتنون به ويحتاج لمرافق، اذا كنتم لاتريدون مرافقا فاعتنوا انتم به.

- هذا عملنا.

أفاق الطبيب على صراخنا، سأل عن المشكلة وسمح لها بالدخول.

* * * * *

أظن أنني نمت ساعتين، صحوت في الثامنة والنصف صباحا، تناولت الفطور مع زوجتي، جاء عارف، سأل عن حالة الوالد، حدثته عن بعض ما يحدث هناك، عن الجانب المضيء في هذه الرحلة المضنية، رحلة الحياة والصراع معها، عن الابتسام والضحكات وسط الآلام والامراض، عن تفاعل المرضى مع المرض، تنسى مرضك، تنسى تعبك، تنسى كل شيء حين تشعر أن أحدهم في ورطة، حين تشعر بأنك انت المكلف بمساعدته، تنسى عالمك وتعيش في عالمك المحدد أمامك، إن الجرأة والأقدام تأتي مرة واحدة ودون أن تدري، دون أن تخطط له، ولو خططت له مسبقا فلربما تبنيه بشكل مثالي جدا أو تتقاعس، التحدي يفرض عليك، والتجارب هي التي تصنع الشجاعة، الشجاعة ليست قالبا صنع مع الانسان في لحظة ولادته، إنها خلاصة الحياة نفسها، كل منا لايحب أن يرى منظر الدماء وهي تنزف، لكن اذا وجدت نفسك أمام منظر كهذا ويحتاج مساعدتك فلن تتأخر. سمع عارف كلماتي، دقق النظر في اكثر من ناحية في البيت وخرج.

* * * * *

في بنك الدم في الطابق الأول، شعرت بالارهاق، بتعب لا استطيع تحمله، لا أقدر على المشي بثبات، التعب يَهُدني، سألني عامل البنك اذا كنت أنا الذي سيتبرع بالدم، أجبت: نعم.سأل عن فصيلة دمي، أجبته، قال: لا يلزمه. قلت ألا تأخذون مني وتستبدلونه؟

- اذا كان لايوجد متبرع غيرك سنستبدله.

في هذه اللحظات تذكرت الحوار الذي جرى مع عارف، قال: لاتتبرع بدمك.

- لماذا؟

- لان كل من يتبرع بدمه يمرض.

- لكن الأطباء يقولون عكس ذلك، فهو يجدد الدم ويبعث نشاطا في الجسم.

- اسمع مني، وانت حر.

فهمت أنه لايرغب أن أطلب ذلك من أبناءه، وبالفعل كنت قد سألت أحدهم، صمت ولم يجب، أعدت السؤال، قال: لا استطيع.

- لماذا؟

- اتوجع من الابرة. أجاب

غاب الجميع، ولم أر أحدا، التقيت بعارف بعدها، قال: الانسان مثل السيارة، تحتاج بنزين حتى تسير، والانسان يحتاج لدم حتى يعيش، يمكنك أن تأخذ بنزينا من سيارة أخرى، وبامكانك أن تأخذ دم إنسان آخر، لكن الدم الذي تبرعت به كان جزء من جسدك، أعطيته لانسان آخر، يمكن أن يعيش عمي وينتعش مما تبرعت به، بمعنى أنك قد وهبت الحياة لانسان آخر، غريب! ماذا لو حدث أن توفي بعدها، معنى ذلك أن جزءا من جسدك سيموت أيضا، لهذا السبب لم اتبرع بالدم، لهذا السبب منعت أولادي من فعل ذلك، اذا مات عمي سأظل أحس بأن جزءا منك قد مات منذ فترة، انني أعيش كوابيس في النهار.

صعدت للطابق الثالث، الوالد شبه نائم كما عهدناه في أيامه الماضية، والوالدة تجلس على مقعد بجانبه وتتثاءب، مرهقة هي الأخرى، بجانبها وعاء به ماء بارد لتشرب، الشيء الوحيد الذي تتناوله

في المستشفى، صحتها لم تعد تساعدها على عمل الكثير، فهي كما الحارس المراقب، تراقب زوجها وكل ما يحدث في الغرفة، اذا سألها أحد أجابته وتظل دونه صامته، اقتربتُ منه، حلقت له لحيته، ودعوات أمي تنهال علي: الله يوفقك، الله يقويك على أعدائك، الله يبعد عنك شر حسادك، الله يرزقك باولاد صالحين.

بعد ما تأكدت بأن العملية ستجرى غدا، أخبرت الممرضة بأن الدم جاهز، وذهبت لاولاد عمي، اخبرتهم بموعد إجراء العملية، وأن مسألة التبرع بالدم قد انتهينا منها، عاتبوني لانني لم أطلب منهم ذلك، سألتهم ان كانوا يوافقون على إجراء العملية، أجابوا: ليس هناك حل أخر.

- اذاً هيا بنا نذهب لنوقع الاوراق، فالاطباء يريدون موافقته، وأنتم تعرفون استحالة ذلك.

- هيا بنا.

سرت في الطريق مع عارف، أحسست بمسؤولية أكبر من قبل، أحسست أننا سنقرر الآن مصير الوالد، ومما زاد من شعوري هذا بكاء عارف، أخرج منديلا وراح يمسح دموعه، حاولت أن أظل محتفظا بقوة أعصابي، فالانخراط في المعركة ليس كمن يشاهدها، أو حتى يساعد فيها دون خوضها بكافة تفاصيلها. حين وصلنا مكتب التربية والتعليم قال: وصلت برقية من عمان يمكن أن تساعدنا في الحصول على تصاريح بسرعة.

- على ماذا تنص؟

- تقول: "أكدوا لنا وفاة الحاج اسماعيل".

رفضت بشدة أن نرسل أية برقية تنص على ذلك، رفضت أن يكون ذلك ثمن زيارة أحد الأقارب لوالدي، قطعت علينا الحديث رفقة التي جاءت لتوها، سألتها إن كانت توافق على إجراء العملية، قالت بتواضع وبحزن: رجل أبي مثل "زر الباذنجان" الذي عفن جزء منه، حتى تأكل الباقي يجب أن نزيل العفن، وإلا ساعدنا على انتشاره، بالتالي يجب التخلص منه، هذا هو الحل، ليس أمامنا خيار آخر، وأردفت: سيصل

حسان غدا بعد الظهر.

* * * * *

كلما صعدنا درجة من السلم نحو الطابق الثالث، إنهمرت دموع عارف أكثر، سار وحده حتى لايريني ذلك، عندها تمنيت لو كنت أستطيع أن أبكي، لكنني لست متأكدا بأن هذا الارهاق قد أبقى شيئاً يحوّله دموعا، حالة الخدر هذه لن تساعدني على البكاء مثله، لا النوم كاف ولا الطعام والشراب، فمن أين آتي بالدموع، دخلنا مركز القسم، طلبوا منا التوقيع، قلت: هل ستجرون العملية غدا؟

- ربما.

- لماذا؟

- يعتمد ذلك على انخفاض السكر.

- ومتى تعرفون ذلك؟

- عندما نفحصه.

- متى تفحصونه.

- قبل العملية.

- هل يعني ذلك أنكم ستؤجلونها؟

- ربما للاسبوع القادم.

دخل الطبيب، قال: العملية تعتمد على ما يقوله طبيب الباطني وخبير التخدير، لكن يجب أن توقعوا الأن. توجه نحوي قائلا: وقع الآن.

- لكن يجب أن أعرف متى ستجرى العملية.

- هذا لايهم، الاحتمال الأكبر أن تجرى غدا، وقع الآن.

طلب عارف من الطبيب أن يفعل كل ما بوسعه حتى لايقطع الكثير من رجله، أجاب: توكلوا على الله. وخرج، لحقت به وسألته: هل تتوقع نجاح العملية يا دكتور؟

- ان شاء الله، فكل شيء يعتمد على نسبة السكر.

عدنا للمركز ثانية، طلبت من عارف أن يدخل معي، قال: إذهب انت، وماذا سأفعل أنا؟

- نوقع على معاملة العملية.

- لن أوقع.

- لا توقع انت، فقط تعال ادخل معي.

دخل، جلس على المقعد، أخرجت الممرضة ملفه، ناولتني القلم، أمسكت به، ماذا أفعل؟! انه خيار صعب، لكن لابد من التوقيع، هل سيمنحه التوقيع حياته من جديد أم يوقفها؟! لست أدري، ابن عمي يرفض التوقيع، لايريد أن يتحمل المسؤولية، لكنني سأتحملها أنا، لماذا أتردد؟! هم موافقون أصلا، لكنهم لايريدون أن يقعوا في دائرة الندم غدا، يجب أن أوقع، هذه مسؤوليتي، لقد تحملت المسؤولية في إدخاله للمستشفى دون مشورتهم، ثم أنا ابنه الوحيد هنا، لماذا اطلب منهم التوقيع؟!.

* * * * *

ها أنا الآن أبقى وحدي، سأسهر الليلة أيضا، اذا كان بالأمس قد وقع أرضا دون ضرر كبير، فعليَ أن أهتم به اليوم اكثر، يمكن أن يسبني، يضربني، يزعج كل من بالمستشفى، لكن يجب أن أظل هادىء الاعصاب، يمكن أن يتصرف الكبير كطفل كما يقولون، لكن يجب أن اضع في اعتباري انه كبير، رباني، علمني، وجعلني رجلا، علمني ورباني حين لم أكن أعرف الدنيا، لم أجرب في حياتي كثيرا، وها أنا اضيف لتجاربي شيئا جديدا، اضيف لها كيف أساعد الاخرين عند الأزمات، حين يكون الألم والمرض، حين يكون العجز وعدم القدرة حتى على ربط الاحداث ببعضها، وهذا الرجل الذي ينام على سريره ليس ككل الآخرين، إنه والدي، يجب أن أقوم بواجبه، البعض يقول بأنني سأدخل الجنة لقاء هذه الوقفة، ربي يراقبني ولن ينسى شيئا، أحد الاصدقاء قال بوجوب أن أقدم له كل ما استطيع وأكثر، والا فانني سأظل أعاني طيلة حياتي من

أي تقصير، وها أنا الآن أقوم بالواجب، ربما يستغرق القيام به شهرا، اسبوعا، يوما، ساعات، ثواني، أتعب اليوم لارتاح غدا، المجتمع والأقارب يلزمونني على القيام بالواجب، لقد بكيت في اليوم الأول حين قال عارف باننا المسؤولون عن كل ما حدث حتى الآن، قال: أنتم لم تقوموا بالواجب، لا أنت ولا أخوانك، حين يأتون يهمهم أن يتباهوا باعمالهم، يأتون "لشمة الهواء" هنا وهناك، صحيح بأنهم يحضرون لعمي كل ما تطلبه النفس من أكل وشرب، لكنهم لم يسألوه إن كان يحتاج لمعالجة، كان يجب...، كان يجب... حينها بدأت أصرخ في وجهه وأبكي، قلت: لم أكن أملك سلطة لاجباره، كنت احاول، في المرة الأخيرة أنا الذي أرغمه على زيارة الطبيب، قبلها كان يرفض، وحين كانت تشتعل نار مشكلة معه، أنتم من كنتم تأتون لاخمادها، كنتم تودون أطفاءها مقابل إرضاء عمكم، لم تكونوا يوما مع رأيي، كنتم دائما ضدي، تعللون ذلك بسبب أنه "ختيار" ولا بد من مراضاته، كان يطردني أحيانا من البيت، كان يلعنني ويلعن نفسه، فهل يكون إجباره بالقوة موقفا مسؤولا؟! أنتم أنفسكم كنتم تقولون: اتركه، لاتجرح شعوره، فالأب يصعب عليه تقبل رأي ابنه حين يكبر، أنتم تعرفون بأنني لو أجبرته لانتحر، بينما أنا أريد له الحياة، أن أتعامل مع الأمور بشكلها الصحيح من وجهة نظرك لاينطبق مع صحيح الواقع، إن أجبرته بالقوة ورغم أنني استطيع ذلك، فسيظل يلعنني، يفشي سِري لكل الناس، أصبحَ أغنية على ألسنتهم وعلى ألسنتكم أنتم بالذات، أنا لا أريد ذلك، أردت أن أحافظ على علاقة جيدة معه، وفي نفس الوقت القيام بكل ما يجب اتجاهه واتجاه مرضه.

جلست في الممر أدخن سيجارة، فرغم يافطات منع التدخين فالكل يدخن، الأطباء يدخنون، الممرضون، المرضى، المرافقون وحتى الزائرون، أعقاب السجائر تغطي الأرض وتضيع بين أوساخها، لاعلاقة بين اليافطات وما يحدث، لاعلاقة بين القوانين المكتوبة سرا وعلانية والواقع، يبدو أنها وضعت لعالم غير عالمنا، فحتى المسؤولون لاينفذونها فلماذا ينفذها الصغار!! من يستطيع الاعتراض على سيجارة

أدخنها؟ إنهم يدخنون وهم يدخلون غرف العمليات، وهم يدخنون حين يتفقدون مرضاهم.

ناداني أحد المرافقين: والدك يحاول النهوض من سريره. أسرعت نحوه، قلت: ما بك؟

- أريد النزول.
- الى أين؟
- أريد العودة مكاني.
- هذا هو مكانك.
- لا، أنا كنت نائم هناك بجانب الباب.
- أين! هناك نافذة وليس باباً.
- لا، فقط ما أطلبه أن تفتح الباب.
- هذا حائط ولا يوجد به باب.

بدأ بالصراخ بطريقة كحالة الثمل: ابعد عني، يلعن أبوك، يلعن عمك على خالك، لقد جعلتني أكفر، أجئت عندي من أجل أن تعذبني كما بالأمس؟!

ها هو يذكر ما حصل بالأمس، حاول النهوض والعودة للبيت، أنا من منعه، لعن كل شيء يعرفه. وقفت أتأمل قدمه، فاذا بالدم يسيل منها، طلبت منه أن يصبر قليلا حتى يتوقف الدم عن النزيف، لم يفهم ما قلته، طلبت من أحد المرضى أن ينادي الممرضة، الدم ينزف وهو ما زال مصرا على النزول والانتقال لسريره "الذي كان ينام عليه"، عاد المريض قائلا: انهم مشغولون. طلبت من محمد مساعدتي وسط زحام السباب، أتت الممرضة، طلبت منه أن يرتاح قليلا، نظفتُ قدمه، وضعت القماش المعقم على الجراح وربطتها، احضرت وسادتين وضعتهما تحت قدمه فاذا به ينام.

وقفت بجانبه أتفحصه بدقة، فغداً عمليته، ربما! أنظر كم هو طويل، مائة وتسعون سنتمرا، أنظر كم عظامه قوية، صحيح بأنه لم تبق منه عضلات كما في السابق، لكنه ما زال عريض المنكبين، يداه ما زالتا قويتين، اصبع من اصابعه يعادل ثلاثة من اصابعي، فعندما كانت

احدى القريبات تنظف الاواني وبالذات "لمبة الكاز"، كانت تصرخ علينا وتقول: تعالوا، هذا هو اصبع عمي اسماعيل، فاذا بها تضع اصبعها في طرف من الزجاجة وتملأها بالماء فيصبح ضخما بالضبط كما اصابعه، هاتان اليدان كان يدافع بهما عن العائلة والحمولة، هو الذي صنع لها إسما، كان أشبه بوزير دفاع الحمولة، بل وزير هجومها، كان جيشها وقائده، هاتان اليدان حملتا السلاح أيام الثورة، كان يملك أحسن نوع منها، كان يملك "براشوتا"، اشتراها خصيصا، كان يذهب لنجدة الثوار ويقوم بمساعدة أهل القرية بنصب الكمائن للانجليز على طريق رأس العين وعند سكة الحديد، المعارك غالبا ما كانت غير متكافئة، لكنهم كانوا يلحقون الاضرار بهم، لم يعرف الخوف يوما، الموت كان بالنسبة له كأي شيء يحدث في تلك القرية، لم يهبه ولذلك لم يلمسه، هو من صنع عزاً لحمولته في وجة الحمائل الخرى، وهو من صنع مكانة لقريته في وجه القرى المجاورة، دير طريف، العباسية، الحديثة وحتى اللد نفسها، الآن الجميع يحترمه. ويتبادلون الاحاديث باشتهاء وبمزاح أيضا.

* * *

-٦-

نبضات قلبي تتسارع، تعلو، أسمع صوتها، أسمع دقا على طبوله، أبحث عن لعابي دون فائدة، فمي يزداد جفافا، الساعة الآن التاسعة صباحا، ما زلت أنتظر القرار النهائي للطبيب، هل سيجريها اليوم أم يؤجلها؟! هل سننتهي من العملية اليوم؟ أمي وأنا نقف عند الباب رغم منع الزيارة في مثل هذا الوقت، طلب الوالد ماءا، جاءت الممرضة، لاحظت ذلك، صرخت في وجه أمي: لماذا تسقينه ماءا؟!

- لم تخبريني من قبل، هل يؤثر هذا على العملية؟

- طبعا، الطبيب سيؤجلها، لو أجراها سيختنق زوجك بتأثير المخدر، المخدر يجعله "يراجع" وتسد مسالك تنفسه.

تدخلت قائلا: شرب الماء طوال الليل، لم يخبرني أحد بذلك.

- اذهبوا للطبيب وأسألوه. أجابت.

جاء الطبيب يسير مساعده برفقته، يلبسون اللون الأخضر، دخلا الغرف يتفحصان المرضى، يقومان بذلك بسرعة ونحن لاندري ماذا نفعل، هل نذهب أم ننتظر؟ الممرضون قالوا: لانعرف. من الممكن أن يقرر ذلك الآن ومن الممكن أيضاً تأجيلها، نعيش حالة من عدم الاستقرار، تفرقنا، كل يسأل من يجده في طريقه، جاء الدكتور شاكر مسرعاً كعادته، قال: لانستطيع اجراء العملية الآن، ارتفع السكر حتى

٥٠٠.

- اذاً متى ستجرى؟

- حسب فحص السكر. ويهم بالذهاب، اوقفته بسؤال آخر: هل يعني هذا بانه من الممكن اجراءها عند الظهر؟

تركنا وذهب، والوالد ما زال يطلب مزيداً من الماء قائلاً: نشف ريقي، لماذا لا تسقوني ماءاً. ذهبت للطبيب مرة أخرى دون فائدة، دخلت مركز القسم، سألت الممرضة المسؤولة، قالت: انتظر. قلت: يجب أن أعرف الآن. قالت ممرضة أخرى: الطبيب موجود في الغرفة ٣١٠، اتصلت به وقالت: إسقه.

اسقيته، بللت فوطة ومسحت له وجهه، قلت له: ابنك حسان سيأتي اليوم من امريكا. أجاب: ابحث عن الدكتور عماد، لقد رأيته قبل قليل، إحكِ له القصة، أخبره أنني أنتظر هنا منذ عشرة أيام، اخبره أن يأت لقص أظافري.

اقتربت منه وصرخت في أذنه: يابا، انني اقول لك أن حسّان، حسّان اسماعيل سيأتي اليوم بعد الظهر.

- اخبر الدكتور عماد أننا زرناه في العيادة ولم نجده.

خرجت من الغرفة لدقائق، عدت فوجدته نائما، خرجت مرة أخرى، جلست على درجات الممر، لاحظت حركة غير عادية للممرضات، دخلن على الغرفة يحملن وعاءاً مملوءاً بالماء وبأشياء أخرى، أمسكن بفوط قماشية وبدأن بتنظيف كل الأسرة، نظفن كل حافة فيها، نظفن الدواليب، أخرجن أغراض المرضى منها، نظفنها، النوافذ بحوافها، كل شيء، كل شيء، غريب!! عمال الخدمات ما زالوا ينظفون الأرض، يمسحونها، مر أحدهم بقربنا، طلب منا أن لانلق بالسجائر وأعقابها على الأرض، أحضر منفضة كبيرة وقال: استعملوا هذه اذا احتجتم. نظفوا المغاسل، الحمامات، الممرات، انتقلوا لغرفة أخرى، لماذا؟ لماذا؟! لم يعودوننا على ذلك، هذه النظافة وهذا الاهتمام لم نره من قبل، أزادوا رواتبهم؟ هل سيأتي زائر اليوم؟ لم أكن مندهشا وحدي، الكل كذلك، ظللت على هذه الحالة حتى اقترب مني أحد المرافقين قائلا:

سيصل الدكتور عماد اليوم. حينها عرفت لماذا غطوا الأجهزة الموجودة في الغرفة بالشراشف وكنا نحتاج بعضها ولا نجدها، عرفت السبب في قيامهم بمهامهم بشكلها الكامل، والله زمن! اذا كان وجود الدكتور عماد له هذه الأهمية، فليظل موجودا، اذا كان كل ما يقوله الناس عنه صحيحا فليكن، فهو يقوم بمهامه، اذا كان وجوده يمنع الانسياب، يضبط حركة المستشفى بمرضاه، أطبائه، ممرضيه وحتى زائريه، فهذا الرجل المناسب في المكان المناسب، الأطباء الاخرون ورؤساء الأقسام رغم أنهم يكرهونه الا أنني لم ألاحظ يوما أنهم حاولوا ضبط المستشفى، المستشفى ليس مملكتهم، وحتى يقوموا بذلك يجب أن يصبحوا ملوكا، المستشفى مملكة الدكتور عماد فقط، هل الخوف هو الذي يدفعنا للالتزام بالنظام؟ هل تعودنا على الصرامة حتى ننفذ الاوامر! فاذا كان المثل الشعبي يقول: "هيك شعب بدو هيك حاكم"، "فهيك مستشفى بدو هيك مسؤول".

دخل عارف غرفة الوالد فاذا به يخرج صارخا: أهذا مستشفى أم زريبة؟! الى متى ستبقون عمي هنا، انقلوه لمستشفى آخر، هذا زريبة حيوانات.

- لماذا تصرخ يا عارف؟ ماذا حدث؟ صرخت به.

- الرجل اليسرى لأبيك يأكلها الدود.

- ماذا؟ كيف؟

- انظر بين اصابع قدمه، الدود يلعب، رحمة الله على الحاج اسماعيل، تعال وأنظر، الدود يأكل أباك قبل أن يموت، أخبرتكم بأن هذا المستشفى لايصلح للمعالجة، لو دخل رجل هنا وهو معافى لمَرِض، إنكم تقضون على حياة عمي، تعال وانظر الى قدمه اليسرى، لقد كان عمي محقا حين رفض البقاء هنا من قبل، إن رجله أشبه "بالفطيسة"، سيقطعون الآن كلتا رجليه، هل هذا يريحكم! أنا أعرفكم، تريدون التخلص منه، تعتقدون بأنكم ستنالون حريتكم بدونه، تريدون أن تدوروا على حل شعركم بعده، إنكم تفعلون ذلك الآن، الا تعرفون من يكون عمي! ألا تعرفون كم يحترمه الآخرون وكم يهابونه، إذهب

للطبيب اذا كان يستطيع أن يعمل شيئاً قبل أن يقصها.

أسرعت نحو غرفة الممرضين، طلبت منهم أن يأتوا بسرعة، رافقتني ممرضة أمسكت بقدمه، تفحصتها وقالت: بسيطة، يبدو أن الدم قد إنساب على قدمه هذه، فولدت دوداً، سأنظفها حالاً، احضرت وعاءا من الماء، سكبت به مطهراً، لبست قفازين، وضعت كمامة على أنفها وفمها، وضعت قدمه في الوعاء فانساب الدود ميتاً، بدلت الماء ثانية وبالصابون نظفتها، وقالت: الحمد لله، التأثير كان خارجيا فقط، أشكركم على ابلاغنا بذلك.

هدأ عارف قليلا، رغم شعوره بأنه أنقذنا من مأزق باكتشافه الدود، إقترب مني قائلا: من سيذهب للقاء حسان.

- المسألة لاتحتاج لاستقبال رسمي، زيارة أخي هذه غير عادية، جاء بسبب مرض الوالد وبالتالي يجب أن لايذهب عدد كبير منا لاستقباله.

- لكننا إتفقنا مع سائق سيارتنا.

- أنا لاستطيع أن آخذ "سيارة سبعة ركاب"، لا أملك فلوسا ادفعها، هذا الاسبوع صرخت كثيرا، وأنا بحاجة للعشرين دينارا التي سأدفعها.

- لن نأخذ فلوسا.

- اسمع يا ابن عمي: صحيح إنك ابن عمي، لكنني دفعت لك اربعين دينارا جيئة وذهابا حين زارنا ماهر وفي سيارتكم.

- وماذا ترى اذا؟

- أن نأخذ سيارة خاصة لاحد الأقارب أو الاصدقاء وأنا سأدفع البنزين.

لاحظت امتعاضا على وجهه، تكلم مع اخوانه الذين جاءوا لتوهم، قالوا: لم يسألك أحد عن البنزين.

وصلت البيت، وجدت رفقة هناك، سألت نفس الأسئلة وأجابت نفس الاجابات، قالت: لماذا تريد أنت أن تذهب؟! أليس أبوك مريضا! يجب أن تبقى عنده.

- لكنني سأذهب لاستقبال أخي، أنا أخوه الوحيد هنا، أمي ستحل مكاني في المستشفى.

- لا أرى ضرورة لذهابك يا خال، تجنب أن ينهش الناس لحمك. قال

ابنها.

- انتم من ستنهشون لحمي وليس غيركم.

ماذا يقول هؤلاء، "سيارة سبعة ركاب" ستذهب للمطار، لاضرورة لذهابي، اذا من سيذهب؟! لماذا لا أذهب أنا! في لحظات التوتر يصعب أخذ الأمور بموضوعية، لكن، وسط هذه التناقضات العائلية من السهل كشف كل شيء، الأخبار تتسرب عبر الأفراد، تصل لكل واحد، تسمع كلاما عنك بألف طريق، لكنك نادرا ما تسمعه مباشرة، المسألة تتوضح الآن، رفقة كانت في امريكا السنة الماضية، حسان أنجز معاملة هجرتها، لم تحصل على "الكرت الأخضر" بعد، ذهابها لامريكا الغرض منه تسفير اولادها لأغراض مختلفة: التعليم، العمل، البناء، هذه العائلة مليئة بالمتناقضات رغم التماسك الذي يظهر لك من خارجها، المصالح هي التي تحدد العلاقة بين الناس حتى الأقارب منهم، لكن ما الذي يجنونه من عدم ذهابي؟ بسيطة، سيظهرون بأنهم الاكثر اهتماما بلقائه، أخوه لم يأت، يوصلون رسالة واضحة: نحن نحترمك اكثر، وها نحن قد وفدنا للقائك، اذ يحتاج منك الأمر ولكي تكون الأحسن أن يكون الآخرون سيئين، لكن من هو الوفد؟! الأمر لايحتاج لكل هذه التساؤلات، طابور من الأولاد والبنات لديهم الاستعداد للذهاب، فقط اطلب فالكل جاهز.

* * * * *

سلمنا على حسان، سرنا معا، انتهى الحديث بعد "كيف حالك"، اقتربت منه قائلا: كيف الاولاد، لم يرد علي، ما الأمر! ربما لم يسمعني، نظرت نحوه، نحو الآخرين فاذا بدموع تسيل ببطء، التزمت الصمت احتراما للموقف، سألهم: كيف حاله؟ أجابوه بمسح دموعهم، تدخلت وشرحت له حالته.

صمت مطبق في طريق العودة، الجميع اصيب بالوجوم، قطع عارف الصمت عند حاجز الشرطة: يلعن أبوهم، اوقفونا، سأنزل لأعطيهم

التصريح. حين عدنا للمسير قال: تكلمت معهم بالعبري، لقد تعلمت القليل، أستطيع تدبر نفسي، أنظر هناك يا حسان، أترى سكة الحديد هذه، عندها بالضبط تبدأ أرض بلدتنا، من هنا تبدأ حدود البلدة، انظر يسارا، كانت كل هذه الأرض تزرع بمختلف المحاصيل، بالذرة والقمح. سأمر من مدخل القرية، هناك العباسية وهناك الحديثة، من هنا نذهب الى مدينة اللد، ها... هذه هي المدرسة التي تعلمت فيها، لقد أصبحت مشتلا، هذا هو مدخل البلدة الرئيسي وهذه هي مستوطنة "بيت نحاميا"، على يمينك ترى سياج "الكامب" الذي أقامه الانجليز وهناك تقع "بن شمن"، هذا هو "جسر أبو بابين"، وهذا هو "بئر البلد"، إنهم يستعملونه الآن لالقاء "الجيف" فيه، هذا هو "الجسر ابو ثلاث ابواب"، وهذه كسارتكم، هناك كان يعمل عمي اسماعيل، أتذكرها!، أتذكر مغارة سلام، "العديسية"، "الباطن"، "جنداس"، "الزعفرانية"، "الرأس"، "رأس أبو زيد"، "النقارة"، "الخربة الشامية" و"علي المالكينا"، زمن راح ولانعرف إن كان سيرجع.

حين وصلنا المستشفى أحسست بمأساة، الدموع تنهمر مرة واحدة، ماذا يجري؟! أنا لاأستطيع ذلك، لا أملك "كبسة زر" لابكي وبهذه الغزارة، سبع سنوات لم يره، أبوه على فراش الموت، يجب أن يبكي، اقترب منه وقبله وواصل البكاء، فاقتربت منه أنا الآخر وقلت له: هذا حسان يا والدي.

- أعطني ماءا. قال

أعطيته، ووسط هذا الجو الكئيب خرجت، القيت نظرة في الداخل فاذا بالكل يبكي، الوالد يبكي هو الآخر، أيقنت عندها أنه عرفه.

نادتني أمي، طلبت أن آت قربها، قالت بأن الدكتور شاكر ناداها، اصطحبها لغرفته، قال: هل تأخذين بنصيحتي؟ قالت: قلها، والله لو أعجبتنا سنأخذ بها. قال: هذا الرجل لا فائدة ترجى منه، لن نجري له العملية، السكري عنده عال جدا، يتراوح بين ٥٠٠ و ٥٢٠ رغم كل الحقن والكميات الكبيرة التي أخذها، اذا أجرينا له العملية سيموت، لايبدو أن السكر سينخفض في المدى القريب، الشرايين التي توصل

الدماغ بالدم لديها ارتفاع بالسكر، لا أرى حلا، فما رأيكم؟! اذا أردتم إرجاعه للبيت ليموت هناك فأنتم احرار.

هكذا هي المسألة اذا، المسألة ليست ماءا، ولا أن السكر عال هذا اليوم، لا أمل في الشفاء، نحن فقط ننتظر موته، هو يقضي معنا آخر أيامه، يصحو حينا ويغيب عن الوعي أحيانا كثيرة، الوالد ليس له علاج، علاجه اذا موته، حياة هذا الرجل الذي يبلغ الخامسة والسبعين ستنتهي خلال أيام، وها أنا أسقيه ماءا بمعدل مرة كل عشر دقائق، قال الطبيب بأنه يشرب ماءا كثيرا نتيجة ارتفاع السكر، سيظل "ريقه" جافا حتى لو شرب البحر. كيس بوله يكاد يمتلىء، أبي لايشعر بأنه يبول، أبي هذا الذي ترونه، المغمض العينين،سيغلقهما الى الأبد، الآن يطلب ماءا، لن نسمع منه هذه الجملة بعد فترة، متى؟ لا أعرف، الآن فقط أفكر بالفترة التي سيبقاها حتى أعرف كيف أعايشها، وددت لو سألت الطبيب، استسخفت نفسي، ربما يفهمها بشكل أخر، الكل يفهمها بشكل أخر فاحتفظت بها سرا، لكنني افكر فيها بجد، لماذا لا نعرف نهايته!؟ وهل نستطيع معرفتها بالضبط!

قال أحد الممرضين: الدكتور لايريد أن يجري العملية حتى لايسيء لسمعته، لايريد أن يموت احد بين يديه.

تجمع الأقارب، تشاوروا بعد سماع الخبر، نادوني وقالوا: هذا الطبيب كذاب، يجب أن تجرى العملية والا سننقله لمستشفى آخر. ينقلونه... ينقلونه، سمعت هذه الكلمة عشرات المرات، أأصمت؟ لو صمت لنفذوا ما قالوه وأبات أنا خارج اللعبة، هم أصلا لايعرفون أين سينقلونه، حزمت أمري وكلمت كل واحد منهم على انفراد: أمر النقل ليس بهذه البساطة، جميع من سألناهم عن حالة الوالد قالوا بأن الدكتور شاكر هو أفضل من في المنطقة، فالى أين سننقله، الدكتور شاكر قالها بنفسه، قال: الادوية التي في المستشفيات الأخرى نملكها، الادوات التي يستعملونها في العمليات نستعملها، بل وأكثر، المشكلة ليست أن تجري العملية أم لا، المشكلة هي حياة هذا الرجل أو مماته، يجب علينا أن نسأل الطبيب مرة أخرى حتى لو كلفنا ذلك زيارته في

العيادة، لايمكن للطبيب أن يكذب، طريق واحد يمكن سلوكه، هو أخذ تقرير واف عن حالته، نعرضه على الأماكن الأخرى،اذا قالوا بأن باستطاعتهم علاجه أفضل مما سمعنا سننقله، أما غير ذلك فمستحيل، لسنا مستعدين لان نكرر المأساة وفي أماكن أخرى بعيدة، نحن مرهقون هنا، لكننا سنزداد ارهاقا اذا ذهبنا لمكان اكثر بعدا وبدون ضمانات مسبقة.

قلت لحسان ما قلته للآخرين، قال: اسمع: أنا جئت هنا مثل المطرود، ليس لدي وقت، أوافق على ما قلته.

سمعت جارتنا بعض الاحاديث، انزوت بي جانبا وقالت: اسمعوا: من يقول لكم هذا الكلام يريد افقاركم، أنا أعرف أناسا دفعوا أكثر من عشرين الف دينار "للكبرة" و "الفخفخة"، لم يقدموا لهم أكثر مما قدمه هذا المستشفى، اذا كنتم تملكون فلوسا انقلوه، والا لاتنفذوا ما يقوله الناس، من الممكن أن تكون نيتهم حسنة، لكن يجب أن تفكروا جميعا، النتيجة هي نفسها أينما ذهبتم، ولا أظن أنه ينقصكم تعب ودفع فلوس ليست بحوزتكم، أنتم احرار.

* * *

-٧-

ها هو شوكت، أخي الاكبر، ها هو قد وصل، عشرون سنة في الكويت، يعمل موظفا في وزارة التربية ولانه غير كويتي بقي موظفا من الدرجة الثانية، هو الرجل الأول في العائلة، وهو المسؤول الاقتصادي عنها، هو من أمر حسان، الأصغر منه أن يغادر امريكا فورا ويأتي، هو من أخبر ماهر بوجوب الالتقاء عند الوالد، قال لهم: يجب أن يعرف جميع الأقارب أننا نقف معا حين تستدعي الحالة، حالة الوالد تستدعي ذلك، ترك وظيفته، أولاده، زوجته وبيته ليكون عند الوالد في محنته، فعلى مدار خمسة وعشرين عاما والعائلة تحلف بحياته، أنه يأتي الآن لئلا تنسى كل جهوده في الماضي، العائلة تنسى كل شيء بجرة قلم وبتصرف بسيط، ها هو يأتي، يأتي لتسلم بعض مهامي، قلت له: لا أريد منكم مساعدتي في مرافقة الوالد ليلا، أنت أيضا مريض بالسكري، يجب أن تستريح، أما حسان فلن يساعدني أصلا، فمنذ اليوم الأول لوصوله قال: أنا مصاب بالرشح. يقضي معظم نهاره في البيت نائما، يداعب أولاد رفقة وبناتها، ما يسأل عنه دائما هو الاكل، الشاي والقهوة، يتساءل دوما وبصوت عال: ماذا فعلتم لي! من أعطاني شيئا ليأت ويأخذه، أنا كونت نفسي بنفسي، والشاطر يعمل مثلي، أنتم شردتموني، وبالذات هذا الرجل الذي أتيت من أجله، قال لي: اذهب وستتزوج إبنة خالك، قرأنا الفاتحة وسافرت، كنت أبعث لها فلوسا لكنه

كان يأخذها، حين طلبت منه أن يرسل خطيبتي لامريكا حتى نتزوج، اختلق مشكلة مع أهلها، وانتهت الخطبة، اضطررت أن أتزوج من امريكا، ها أنا واولادي هناك، أولادي في المدارس والجامعات، لا أعرف ماذا أفعل، هل أتركهم لاعيش هنا! وهنا يعني لي خطيبتي المتزوجة الآن، ويعني أن أنسى أولادي وزوجتي، وهناك تعني لي الغربة، ألم يكن هذا الحاج الذي ينام على فراش موته هو السبب، أنتم ضيعتموني، رميتم بي من أجل الفلوس، القيتم بي وأنا شاب يافع في شوارع شيكاغوا، بين العبيد، بين اليهود والامريكان البيض، استطعت أن أعيش بينهم، وأكوّن نفسي، كونتها بذراعي، بشبابي، لقد اضعتم عمري شابا وكبيرا وما تريدونه مني فقط الفلوس، حين جاء الوالد عندي هناك، وجدت له عملا جيدا، لكنه كاد أن ينهي حياتي، فقد جاءني بعادات وتقاليد أهالي بيت نبالا قبل أن أتركها، كان يريد فرض سلطته علي وعلى اولادي وزوجتي، وفي النهاية صار يبحث عن أمثاله، أشاع اسراري عندهم، فرحت كثيرا حين قرر الرجوع عندكم.

تابعت لشوكت: حسان ليس بمقدوره أن ينام على البلاط، قلت لكم لا أريد مساعدة، ما أريده فقط أن تتسلموا إحدى الجبهات، جبهة الأقارب، كما ترى وسترى، انهم يحاولون نقله، يريدون نقله غدا الى مستشفى "الفرنساوي" مع أن الدكتور شاكر نفسه هو المسؤول عنه هناك أيضا، لقد استطاعوا اقناع حسان بذلك على ما يبدو، الآن لن أتدخل، قلت: أصبحت هذه مسؤوليتكم، اذا كنتم تملكون فلوسا فافعلوا ما ترونه مناسبا، بالنسبة لي فالكل يعرف وضعي، أموالكم كان يجب أن تصلني لتدعم صمودي، أنا صامد بدونها، ادرسوا الاوضاع جيدا وقرروا،صدقوني بأن نقله لمستشفى آخر سيفرحني، سيخفف عني تعبي وسهري، انا دخلت في الأصل بمجهودي، وأنتم بفلوسكم ان أردتم نقله.

قال: سننقله في حالة واحدة وهي أن نضمن علاجا أفضل في مستشفى آخر، أما غير ذلك فكلام فارغ، على كل سنرى خلال الأيام القادمة، أما الجبهة التي سأتسلمها فأرح بالك، لن يقولوا شيئا الآن، وان قالوا فسأعرف كيف أرد عليهم، المهم، سامع؟ المهم أن نتعامل بهدوء

وروية، يجب أن نتخلص من التعامل بعصبية، هم يعتقدون أننا نملك فلوسا كثيرة، لكن الواقع غير ذلك، الوالد وصله مني خلال العشرين سنة الماضية ما قيمته ثلاثون الف دينار، وماهر وصله مني ما قيمته عشرة آلاف دينار حتى اكمل تعليمه، ونحن في الكويت لانعيش على الزيت والزعتر، حسان لن يدفع حتى لو ملك ذلك، هو دائما يقول بأنه لايملك مع أنه يعلم أولاده في أفضل المدارس والجامعات، يحسب بأننا سننهش لحمه، يحسب باننا سنسرق فلوسه، لن نستطيع نقله كما أرى، بالنسبة لي فانت تعرف وضعي، القيت فلوسي في السوق، فالوظيفة لاتطعم خبزا، دخلت في التجارة، لكن الحرب العراقية الايرانية أفلستنا، فتحت في لندن وباريس وسويسرا المزيد من المستشفيات العقلية لمعالجة أهالي الخليج وتجارها، الشركات أعلنت إفلاسها، "ناس طلعت وناس نزلت"، تدخل الحكومة لم يُفد، حاولت الترقيع، حوالي مائة الف دينار لا استطيع جمعها، ولا أرى في المستقبل بانني استطيع، فلوسي ضاعت بين الملايين، الحكومة لاتستطيع جمعها، فالشركات الجديدة معظمها اكتتب باسهم ولكنها اكتشفت بأنها مجرد شركات وهمية، "سوق المناخ" لم يساعده لامناخ الكويت ولا مناخ الحرب على النهوض، لن نستطيع نقله كما أرى، لكن ان تحقق الشرط الذي قلته فاننا لمضطرون أن نفعل ذلك حتى لو بالدين، فنحن لانريد إرضاء ضمائرنا فقط، بل إرضاء المجتمع الذي حولنا، الأقارب هم الجزء الأهم من هذا المجتمع، اخوك ماهر سيصل عصر اليوم، وبما أنه طبيب، سنناقش المسألة معه، لابد سيدلنا على الطريق الملائم، لاتكلم الأقارب في شيء، أنا سأناقشهم في الأمر، "شيل هالحمل عن رأسك"، أعرف أكثر من ما قلته، سأتصدى لهم اذا احتاج الأمر، لكن بسلاسة، دع كل شيء يجري بشكله الطبيعي.

حالة الوالد الآن جيدة، فهو يعرف معظم الناس، ناداهم باسمائهم، رأى ابني تحمله أمه، ناداه، طلب منه الاقتراب، ضمه، قبله وبدأ بالبكاء، بكى جميع من حوله، لم ينم كثيرا في النهار، لكنه ظل يطلب العودة للبيت، ضرب أمي، أمسك يدها، شدها نحوه، ضربها لانها لم

ترجعة للبيت ، رغم ذلك فنحن مرتاحون ، فهل يكون اليوم بداية الطريق ؟! اتكون نقطة التحول! التحول للأحسن! لا ندري ، لكننا نعرف ان الوضع اليوم ليس كالايام الفائتة، سكر الدم انخفض حتى ٣٢٠، جاء الطبيب وقال بأن العملية ربما ستجرى غدا، سيستشير الأطباء الآخرين خاصة طبيب التخدير، طلب منا أن لانسقه ماءا هذه الليلة، طلب منا أن نتعامل معه كما لو كانت العملية ستجرى غدا، وعند الصباح سيتضح كل شيء.

مرضى السكري الطبيعيون يكون السكر عندهم مرتفعا لو كان اكثر من ١٢٠، لكننا فرحون، الاطباء أيضا فرحون لانه وصل هذا الحد، اعتبرناه جيدا، وها نحن نلاحظ تصرفاته، تأثيره على استعادة ذاكرته ومعرفة أقاربه، عدة أيام احتاجها لينخفض فيها السكر من ٨٠٠ الى ٣٢٠، ماذا كان جسمه! أكان كله سكر؟! نعم، يوم العيد شرب حوالي لترين من الكولا، أكل حلويات وكعك بالتمر، وعند الظهر نام، ألقى بجسده على السرير، وظهرت كل أعراض المرض فجأة، فتشت أوراقه الخاصة، وجدت أربع بطاقات إرشادية لمرضى السكري: ممنوع عليه تناول: السكر، المربى، الحلويات، الفطائر، العنب، الموز، العسل، الفاكهة المحفوظة، البقول الجافة والبلح والتمر، تناول الخضار باكبر كمية ممكنة، اعتن بنظافة جسدك وخاصة القدمين واحترس دائما أثناء قص الاظافر مع الاحتفاظ بجفاف الاصابع، ممنوع... ممنوع، يجب...، يجب...، بطاقات...، مجرد بطاقات احتفظ بها بين اوراقه الكثيرة، اوراق الفحص المخبري، مراجعة العيادات، فواتير الكهرباء والماء، رسائل، اوراق تثبت ملكيته في البلدة، بطاقة الوكالة وأشياء أخرى، لم يلتزم بأي من بنود البطاقات الارشادية، فالأكل لانستطيع إلزامه به، حتى في المستشفى كان يفتح علب الحلويات ويأكلها، وفي البيت حين كنا نقدم للضيوف فواكه، كعك وغيرها، فانه يمتنع عن محادثتنا اذا لم نقدم له بالضبط كما قدمنا للزائرين، الشيء الوحيد الذي تقيد به هو شرب الشاي، اختصر كل شيء فيه، اذ يحاول أن لايشربه، واذا فعل يستعمل "سكريم"، أما الأحذية فكم من مرة أثيرت

بيننا خلافات بسبب نيتي في التخلص من الاحذية القديمة الجافة والتي تعض قدميه أو تنخزها كالمسامير، أما الأظافر فكان لايزيلها الا "بالكماشة" وهذه هي النتيجة.

وصل ماهر حوالي الخامسة مساءا، وسط الضجيج والفوضى، حالة من الهيجان داخل وعلى أبواب المستشفى، صياح، سيارات إسعاف تطلق صيحاتها، سيارات كبيرة وصغيرة، ما الخبر! حادث سير مروع، تدخلت الشرطة فلم تستطع منع الأهالي من الدخول، اختلط الحابل بالنابل، عيادة الطوارىء امتلأت بالمصابين والزائرين الذين انتهى موعد زيارتهم، مرضى الطوابق كلها تجمعوا في الطابق الأرضي وعلى الدرج، اهالي قرية بيت اللو، دير عمار، كفر عين، بيت ريما، دير غسانة وأهالي مخيم قدورة تجمهروا على باب المستشفى وداخله، الصياح يعانق السماء، البعض يضرب كفا بكف، تدخل الجيش، وقف بسلاحه على الباب لمنع الدخول، لكن المشكلة الآن كيف يخرج من في الداخل، حاولوا فلم يستطيعوا، صوب أحدهم سلاحه نحو الجمهور محاولا التهديد، قفز عليه أحد الشباب من الخلف، أمسكه، تدخل الآخرون، الشرطة قامت بالفصل بين الجنود والأهالي، قال الشاب للجندي: لن أخرج حتى لو جاء ربك، أنا أريد أن أرى أخي، يمكن أن يكون قد مات، ان حاولت منعي سوف اقتلك أمام هذا الحشد. انسحب الجيش وبقيت الشرطة.

- أهذا مستشفى أم خان! قال ماهر.

- هذا حادث كبير، وسيسبب مشكلة إنسانية وعشائرية كبيرة. قلت .

أمسك ماهر بيد الوالد، تفقد رجله وجسده، طلب الملف من الممرضة، قالت: بامكانك مقابلة الطبيب غدا، لم يستطع البقاء وسط هذا الزحام، طلبت الممرضة أن نذهب ففترة الزيارة انتهت، حمل نفسه وعاد للبيت.

ماذا بالنسبة لك يا والدي؟ ماذا بعد اجراء عمليتك! هل ستتكلم؟ هل سترى ابنتك نزهة التي ستأتي غدا؟ ماذا سيكون موقفي لو حدث مكروه لك؟ كيف سأتصرف! لا... لا، لن يحدث ذلك، ستعيش، الطبيب لن يغامر

بسمعته، ستظل حيا، ربما ستتأثر صحتك سلبا حين تعرف بأنهم قطعوا رجلك، أنا من وقع على العملية، تحملت مسؤوليتها، لن يلومني أحد، الكل وافق، لايوجد متسع من الوقت لنقله لمستشفى آخر، ولماذا ننقله؟ لقد رأيت الموت، صرت لا أخافه، فأنا أراه أمامي، أبي الذي أراه الآن ربما لن أراه غدا، قلت بأنني سأنام الليلة عندك، ربما ستكون الليلة الأخيرة التي أقضيها معك، إن بقيت حيا سيحل مكاني أخواني كما قالوا، أخاف من ما قلته، أهذه الليلة الأخيرة في المستشفى؟ لا... لا، سيظل حيا، ما رأيته هذه الليلة أعطاني دفعة جديدة للأمام، لحب الحياة، نظرت نحوه، شعرت انني أحبه، أحبه أكثر، خفت عليه من اخطبوط الموت، دققت النظر مرة أخرى، رأيته قويا، سمعته ينادي ابناءه، إنه يحبهم، يحب الأحياء والأموات، ينادي أخاه، امه، جدته، وكل من يعرفهم، الطبيب صرخ في إذنه بانهم سيجرون له العملية غدا، هل عرف ذلك حقا؟! ربما.

طلب ماءا، لم أعطه، ظل يطلب، نادى كل من شاهده، قال أحدهم: حرام عليك، أعطه ما يريد. لم أعطه، حاول أن ينام دون فائدة وفي حوالي الخامسة صباحا صار يبكي ويقول: ماذا تريد مني يا رجل؟ ألست ابني؟! ماذا فعلت بك؟! لماذا لا تلبي طلبي؟ لماذا؟؟ والله لو كنت كلبا وسمعته يعوي لقمت ترى ما يريده،إفرض أنني "سائر سبيل" وطلبت كأس ماء، ألا تعطيه! ماذا ستخسر من مالك؟ أنا أبوك، إذهب وإسأل عني، لم أكن في يوم من الأيام باخسا ولا ناقصا، طوال عمري وخيراتي تغمر الجميع، أنا الذي رفع اسم البلدة عاليا، أنا من حميت العائلة، أنا الذي صنع لها إسما، كان اسمها عائلة الميتة، الآن صارت من أحسن العائلات في بيت نبالا، اذا كنت لا تصدق إذهب وإسأل، اسأل كم رجلا أطلق على ابنه اسم اسماعيل، والآن لاتريد أن تسقيني ماءا. ماء... ماء.

تقطعت من داخلي لكل ما قاله، لكن ما العمل؟ أحضرت رشفة ماء وأسقيته.

* * *

-٨-

أيقظني شوكت من النوم، صحوت متثاقلا ، نظرت للساعة فاذا بها السابعة صباحا، ساعة واحدة نمتها، غسلت وجهي ، تناولت الفطور وذهبت مع ماهر لمقابلة الطبيب ان كان بامكاننا ، ذهبنا للاستفسار عن حالة الوالد وعمليته، عند باب المستشفى منعوني، قالوا: الدكتور عماد في الداخل، الدخول ممنوع.

- لكنني مرافق.

- اذا أردت الدخول، ادخل وحدك. فدخلت.

التقيت الدكتور شاكر مسرعا باتجاه غرفته، ابتسم وقال: سنجري له العملية اليوم، نسبة السكر أصبحت ٢٣٠.

- وهل ترى ان تأجيلها لأيام أخرى سيقلل من هذه النسبة؟ سألته.

- لا ، فنسبة السكر لا تعتمد على الأكل والشرب فقط، وهو لا يأكل أصلا، بل ان هذه النسبة مرتبطة بعمليات اخرى تجري في الجسم بما فيها الحالة النفسية، نخشى أن ترتفع، اليوم سنجري العملية.

- يادكتور، اخي جاء من اسبانيا، هو طبيب نفسي ، ويريد معرفة حالة الوالد بالضبط، أنتم أطباء وسيفهم ما تقوله، هل يمكنه مقابلتك لبضع دقائق؟

- ادعه.

نزلت الدرجات مسرعا ، طلبت منه الدخول، حاول الحارس منعه، اقتربت منه وشرحت له الأمر، فقال: أنت وحدك تتحمل مسؤولية دخولكما. فدخلنا.

دعانا الدكتور شاكر لمكتبه، اعتذر على أنه يغير ملابسه أمامنا، تعرفنا على بعضهما، وبدأ بالحديث عن الوالد ومرضه، بينما كان يلبس ثيابه الخضراء، تحادثا في أمور طبية ومصطلحات لم أفهمها، اعتذر الطبيب بسبب عملية يريد اجراءها، خرجنا، سألت ماهر ان كان قد اقتنع باجراء العملية، قال: طبعا،لا يوجد مخرج آخر.

معظم الأقارب وقفوا خارج مبنى المستشفى والقليل منهم استطاع الدخول، صرنا الان خمسة اشخاص ، رآنا الممرض فطلب منا الخروج ، قلت: هذه عملية ويجب بقائنا هنا.

- ليبق واحد منكم فقط، الدكتور عماد في المستشفى.

بقي ماهر بجانبه، بينما صعدنا نحن للدرجات المقابلة للغرفة، إختبأنا عند باب السطوح، انضم إلينا آخرون، المكان لم يعد يتسع لأحد، رآنا أحد موظفي الخدمات فقال: هذا المكان بالتحديد يتفحصه الدكتور عماد.

- وما العمل اذا؟

- اخرجوا.

لم نخرج، التصقنا بالحائط أكثر، حاولنا الابتعاد عن مرأى أي شخص يسير في الممر، بقينا هكذا حوالي الساعة، فاذا بماهر يناديانا: تعالوا، سيدخلونه الآن غرفة العمليات. نزلنا مسرعين، وبعد نقله على السرير الذي جاء به الممرض، طلب أن أضع وسادة تحت رأسه، فعلت، أمسكت بطرف السرير من جهة رأسه، دققت النظر فيه، ودقق هو الآخر نظراته فينا دون أن يعرف بالتحديد ما يجري، حالة من شبه الخدر أصابته وأصابتنا أيضا، أمسك الممرض بالطرف الاخر من السرير، امسكه بيديه، أدار ظهره وبدأ بسحب السرير ، عند باب الغرفة، امسكت رأسه وقبلته، اغرورقت عيناي بالدموع وابتعدت في الممر، فعل الباقون مثلي.

استرجعت كيف يدخلون المريض غرفة العمليات، يأتي الممرض بلباسه الأخضر، وبحذائه الأخضر أيضا، جارا سرير النقل، يقول للمريض: قم، استعد للعملية، يبدل له ثيابه ان كان لا يستطيع ذلك وحده، يحمله بالشرشف اذا كان لا يستطيع القيام كحالة والدي، يسير في الممر، يدخل غرفة كبيرة ومنها لغرفة التخدير، التخدير يجري في غرفة لا نستطيع مشاهدتها، يعرف المريض أنه ذاهب لغرفة العمليات، يدخل خائفا، ينظر للجميع كما لو كان يودعهم، بل انه يودعهم، ويدخل.

الممرضون والأطباء يلبسون الثياب الخضراء، فهذا اليوم هو يوم الجزر كما يقولون، حتى لباس الأرجل الأخضر يتمشون به، وأحد الممرضين يلبس قناع العمليات ويدخل من غرفة لاخرى، قال ماهر: والله حاله! هذه الملابس لا يسمح في العادة بارتدائها إلا داخل غرفة العمليات فقط، الأصل فيها أن تكون معقمة ولا تضر بالمريض وإلا أصبحت ملوثة، لكنهم يقومون بافزاع المريض بهذه الطريقة، انهم يتباهون.

الساعة الان الثانية عشر ظهرا، الزائرون يندفعون مرة واحدة كما لو كانوا وراء قضبان السجن وفتحت لهم ابوابه مرة واحدة، الاقارب كلهم موجودون الان، الرجال والشباب والنساء يقفون على جانبي الممر وعلى الدرجات، الكل ينتظر خروجه من غرفة العمليات، حالة من القلق والترقب تكسو جباه الجميع، يبدو أن العملية لم تُجرَ حال دخوله، ففي الداخل أكثر من مريض ، كل مريض ودوره، انطلقت بافكاري حول ما يجب عمله في حالة ابلاغنا بوفاته، حاولت أن ألملم المهام الواجب القيام بها، يجب أن اوزعها على الأخوة والاقارب، متى يكون موعد الدفن؟ اليوم؟ نعم فكرامة الميت دفنه، لا ، ربما ستصل نزهة اليوم من السعودية، يجب تأجيل الدفن للغد، يجب أن نخبر كل أبناء بلدتنا، فحجم من يحضر يدل على مكانة الميت وأقاربه، وبينما أنا كذلك اقترب مني ابناء عمي، طلبوا سجائرا في محاولة لكسر الفجوة التي نشأت نتيجة تأخرهم، قال عارف: هل كان بامكاننا عمل اكثر مما

عملناه؟! رجله هذه متعفنة ويجب ازالتها.

في الثانية عشر والربع خرج الطبيب قائلا: الحمد لله على سلامته. لم نصدقه، لم يغير من حالنا، ظللنا ننتظر، مرت نصف ساعة اخرى حتى خرج، خرج متألما، وجهه شبه جاف، وشفتاه أيضا، يحرك رأسه يمينا ويسارا ويعصر ألمه بعينيه، يفتحهما ليغمضهما ثانية، تجمعنا حوله ، رائحة البنج تبعث فينا حالة من الخدر بل الغثيان، شعرت كما لو كنت اريد ان اخرج كل ما في جوفي ، وقفت بجانب النافذة، استنشقت كل ما باستطاعتي استنشاقه من الهواء، جاء الطبيب وطلب ان يفسح الزائرون مجالا لوصول الهواء، هزّه، ضربه على خديه ضربات خفيفة، نادى عليه، التفت ناحيتنا وقال: حالته جيدة. خرج معظم الموجودين الى الممر وعلى الدرجات ثانية، وبينما نحن كذلك فاذا باحدى عاملات الخدمات تحمل صندوقا كرتونيا مربوطا بلفافات خرجت به من غرفة العمليات، انها تقترب نحوي، وضعته امامي قائلة: هذه رجل أبيك. طُلت النظر فيها وفي الصندوق ، وقفت مندهشا ، لم أدر ماذا أقول وماذا افعل. كل من حولي وقف مشدوها ومستغربا، سألتها: وماذا افعل بها؟

- تدفنها

- أين؟

- في أي مكان تراه مناسبا. وذهبت

هرب بعض الشباب خشية حملها، جرت همسات ومحادثات، ماذا نفعل! اتفقنا على أن نطلب من الطبيب أن يتخلص المستشفى منها، فهل يمكن أن يكونوا قد ظنوا بأننا نحن الذين نريدها؟! سنقول لهم: لانريدها. هذا مستشفى حكومة، ولديهم طرق للتخلص منها، أما نحن فماذا نفعل! هذا جزء تالف ولم يعد له قيمة عندنا، ما يهمنا هو ما تبقى من الوالد، وليس ما ذهب منه، نريده ككل، فهذه كانت رجله، وبقي هو بجسده، بباقي جسده، لكن بعقله وبوجوده، هذا الوجود الذي لم تقطعه هذه الرجل، لحظات فاذا بالطبيب يأتي، سألناه، قال: ليس لدينا طرق للتخلص منها، الطريقة الوحيدة هي أن نلقيها مع القمامة،

عندها، من الممكن أن تأتي الكلاب والقطط وتأخذها، سيراها البعض، سيبلغون الشرطة، عندها ستثار قضية، الأفضل أن تتخلصوا انتم منها، ادفنوها، نحن لانملك فرنا خاصا للتخلص منها، كما هو الحال في المستشفيات الراقية، ليس لدينا خيار سوى أن تأخذوها.

اقترب مني محمد المرافق وقال: ألا تعرفون العادات والتقاليد! خذوها وادفنوها، احفروا لها قبراً وادفنوها، في بلدتنا أشترك أحدنا في جنازة إصبعه الذي كان قد قطع. اين ندفنها! أخذتها للبيت، بعد أخذ ورد وإتخاذ قرار يلغي ما سبقه، قررنا أن ندفنها في الحرش المقابل للمستشفى خاصة بعد أن سمعنا رفقة تقول بأنهم كانوا يفعلون ذلك هناك "للطُرّح"، ذهبنا ثلاثة، حملنا فأسا ووعاءا لازالة التراب، تبادلنا حملها، وبدأنا بالحفر، حين رأنا اولاد كانوا يلعبون هناك هربوا ودار حديث:

- ما هذه الحياة! الواحد فينا صار يدفن بالتقسيط.

- ليس هذا فقط، فالواحد مثل السيارة، له قطع غيار.

- هل تعتقدون أنني سأحضر الوالد هنا وأخبره بان رجله مدفونة في هذا المكان؟!

- من السهل استيعاب أن فاكهة تتعفن، أما أن يكون إنسانا!! هل تتصور إنسانا يتعفن جزء منه، الآن اذكر الحمار المريض أو حتى الكلب المريض الذي كان ينزوي تحت شجرة، كنا نمر عنه وتمر الحيوانات عنه أيضا دون أن تسأله، ربما كانت تعاني من نفس المرض.

* * * * *

في محاولة لاضاعة الوقت، اقترح محمد أن نلعب "طرنيب"، سألت: وهل يوجد "شَدّة"؟ قال: مع صلاح. واكمل: صلاح! يا الله.. لكن ما العمل اذا كنا لانجد غيره، معنى ذلك أنه سيلعب معنا هو الآخر. صرنا أربعة، فرشت حراما وجلسنا، حددنا شروط اللعبة: يجب توزيع الورق بناء على طلب خصمك، ممنوع كشف الورقة الأخيرة، ممنوع أن تدق

بالورق أو بأية علامة أخرى، ممنوع استشارة صاحبك إن كان باستطاعته مساعدتك إلا في حالة طلب اللعبة كاملة، أمسكت بالورق، "قطعها" خصمي ووزعتها "قلوب"، أمسك كل واحد بورقة وبدأ الطلب: ٧، ٨، لاشيء، ٩، بدأ اللعب فاذا بابناء عمي يدخلون، نظر عارف اتجاهنا، نهضنا، قال: أتلعبون الورق؟!

- لم نبدأ بعد، وجدناها طريقة لكسر الوقت.

- اكملوا لعبتكم.

لم نكمل لعبتنا، اقترب عارف نحو الوالد، أيقظه، سأله: كيف حالك الآن يا عمي؟ أجاب بمالا يمت لسؤاله بصلة، صرخت في أذنه: هؤلاء أبناء أخيك جاءوا يسلمون عليك، لم يَرُد، ضرب عارف كفا بكف، وضع يديه خلفه ثم قال: لاحول ولا قوة الا بالله، أهذا عمي الحاج اسماعيل! سبحان الله كيف كان وكيف صار، سبحان الله. ثم التفت نحوي بعلياء: العبوا الورق اذا أردتم، نحن ذاهبون، جئنا فقط لنطمئن على عمي. قلت: لم نلعب الورق بعد، ولا ضرورة للكلام الفارغ، هذا هو عمك، اذا، أطمئنيت عليه مع السلامة.

ساد صمت، فاذا بنا نسمع صوت شهيق وزفير بشكل حاد ومتسارع، الصوت يصدر من زاوية في الجهة المقابلة من الغرفة، لم ألاحظ علامات للحزن أو القلق على وجه أحد رغم علامات الموت التي أسمعها، أيكون ما يحدث الآن أمرا عاديا، جاء الممرض بطلب من أحد المرضى، لكن الممرض اقترب من أحد مصابي الحادث، سأله الممرض: ما بك؟ نادى عليه باسمه لكنه لم يجب، أمسك بجهاز قياس الضغط، قاسه، خرج مسرعا، جاء مع ممرض آخر، قاسوا ضغطه مرة أخرى، خرجنا، أغلقوا الباب، خرج الممرض والطبيب بشكل لافت للنظر وعادا يحملان بعض الأدوات، تهامسنا: يبدو أن الأمر خطير، فتح الممرض الباب، طلب من الزائرين أن يغادروا المستشفى فمواعيد الزيارة انتهت، خرج الطبيب وقال: لو سمحتم اخرجوا من هنا، الوضع "زفت" وقد طلب الممرض منكم اكثر من مرة مغادرة المستشفى، فَجَرَتْ مشادة بين الطبيب وعارف.

- لم يطلب الممرض منا أن نخرج سوى مرة واحدة.

- بل قال.

- لماذا لم تقل الحالة صعبة أو خطيرة بدلا من هذه الالفاظ القذرة؟

- قلت لكم اخرجوا.

- يجب أن لايتلفظ الطبيب بالفاظ كهذه.

- سأتلفظ بأوسخ منها اذا لم تعجبك كلمة زفت. واغلق الباب.

- كل إناء بما فيه ينضح. قال عارف بأعلى صوته من وراء الباب.

ذهب الزائرون، تهامسنا حول حالة المريض، قال مريض وقف بجانبنا: وجدته هكذا، ذهبت وأخبرتهم.

- هل جاء الطبيب قبل هذه المرة وزاره؟

- لا،زاره الممرض فقط.

خرج ممرض، فتح باب غرفة العمليات المقابلة، أخرج منها إحدى أسرة النقل، تساءل أحدنا: هل يعني ذلك أنهم كانوا يجرون له عملية موضعية في الداخل واحتاج الآن عملية أكبر في الغرفة الخاصة بذلك.

- لا، بل مات.

مرت لحظات، فاذا بهم يخرجونه مربوط الغطاء عند قدميه ورأسه، يجرونه، وقفنا جميعا، حالة من السكون تجتاحنا ونحن نرقب موكبه، قطع محمد الصمت قائلا: الله يرحمه.

- الدائم هو الله.

- إنا لله وإنا اليه راجعون.

- لاحول ولاقوة إلا بالله.

- هم السابقون ونحن اللاحقون.

وبينما نحن كذلك، في حالة من الوجوم، فاذا بزغاريد تنطلق من الطابق الثاني، من طابق الولادة، جاء للعالم الان ولد، ضجة في الطابق الثاني، أصوات الفرح تصلنا.

* * *

-٩-

أبو محمد أطلقوا سراحه، هو وابنه افرجوا عنهما، شعرت بالحزن، كساني اليأس لبعض الوقت، متى سيأتي دورنا؟ لا أراه في الافق، الكثيرون دخلوا، مكثوا فيه يومين أو بضعة أيام وخرجوا، هؤلاء مجرد زائرون، يحملون تصريح مرور، يتأخرون على نقطة التفتيش قليلا لكنهم يذهبون، هؤلاء لايهمونني، لكن وعلى مدار الأيام الماضية هناك من سميت الغرف باسمائهم، فاقدم الزائرين تسمى الغرفة تلقائيا باسمه، لم تسمى الغرفة باسمنا بعد الا بين الأقارب، المستشفى يصبح سجنا، كلاهما تدخله رغما عنك، تظل تنتظر اليوم الذي ستخرج فيه، تظل في شوق إليه، في السجن تعرف متى ستخرج اذا صدر الحكم، في المستشفى كل شيء حسب الظروف وتطور حالة المريض، إنك كما الموقوف، تضطر أن تقيم علاقات مع من تجدهم، مع من لم تعرفهم غالبا من قبل، تضطر للتعرف عليهم، تعرف كل شيء عنهم ولو وجدتهم في الخارج قد لاتضطر للابقاء على العلاقة، فواقع الحياة يجرك لتعقيداته، كم من مرة وعدك أحدهم بزيارة بعد الخروج دون أن يفعل؟ كم من مرة تنقطع العلاقة بينك وبينهم على باب الخروج؟ اذا صادفت أحدهم فانك بالتأكيد ستسلم عليه وتتبادل معه بعض الحديث، لكن نادرا ما تخصص جلسة لمراجعة كل ما حدث الا بين الاصدقاء، وكأن كل واحد قال في نفسه: لننسى ذلك، لانريد أن

نذكره على الاطلاق، إنه جزء من الماضي، من تاريخنا المشترك، لكن الحياة حتى نعيشها يجب أن ننظر للجانب المشرق منها، يجب أن ننسى الايام السوداء، نلقيها جانبا، تتذكرها فقط في الأيام السوداء، الآن إنساها، لننساها معا ولنعش حياتنا كما نراها الآن. أنا الآن أعيش في سجن، والدي الحاج اسماعيل هو الذي وضعني في هذا السجن، يجب أن أعيش حياتي بأفضل ما يكون حتى في هذا الوضع، ففي الغرف المجاورة أسمع صوت المرافقين والمرضى يتحدثون، يتحدثون عن كل شيء، تسمع أخبار كل الدنيا، صغيرها وكبيرها، تحن الى الماضي فتحبه، يصبح جزءا من تراثك، تصبح كما لو كنت تضع منظارا على عينيك، وتحاول رؤيته بكافة تفاصيله، واذا عجزت عن ذلك تضع احتمالات حتى تعرفه فيصبح تاريخك، تتذكر كل من تعرفهم، الأهل، الاصدقاء ومن لم تعره انتباهك من قبل، تسلط عليهم الاضواء، تسترجع تاريخهم، تصرفاتهم، وتبحث عن ايجابياتهم لتحبهم، تبحث عن آخرين، تنسج علاقات بين كل الخيرين فتجدهم كثيرين، هذا هو أملك في الحياة، ترسم خارطة لما يدور في الخارج، ترسم خارطة مبالغا فيها لتصبح جزءا منك ومن العالم الذي تريده، يصدمك أحد المارة في المستشفى فتتذكر إنك فيه، حين تمر عن شخص تراه، تسلم عليه حتى لو كنت قد رأيته منذ وقت قصير، تسأله عن أخبار جديدة أو حتى عن أفكار جديدة لانك دوما تريد الجديد، تريد الجديد المفرح، وتحاول أن تستخرج شيئا مفرحا من الجديد المحزن، تتحسس آلام الآخرين وتعيش معها.

أن تكون مرافقا يعني أن تكون مناضلا بنفس الوتيرة وعلى مدار فترة المرض، لم أعد احتمل ذلك، أصبحت مهمة شاقة، لا تستطيع أن تداعب اطفالك، تنسى هموم ومشاعر زوجتك وبيتك فما العمل، لا نستطيع أن ننشر اعلانا في جريدة كما قرأته مرة، لانستطيع أن نطلب مرافقا باجرة، المريض والدنا ونحن من يجب أن نرافقه، نحن لانستطيع عمل ذلك أمام الأقارب، أمام الحمولة وأمام أهل البلدة وحتى أمام الجيران والمعارف، فما العمل؟ يجب أن نطلب من الأقارب بلا

تردد مساعدتنا، إثنان أو ثلاثة منا لايستطيعون تحمل هذه المهمة الشاقة بدون تاريخ نهاية، ما الذي أقوله! الأقارب فقط يأتون بالمتاعب، انني لست سجين والدي فقط بل سجين كل من حوله، صحيح بأن هناك علامات مضيئة عند الاصدقاء لكنهم لايستطيعون الآن تغيير وضعي، هذه هي الحياة، يجب أن أعيشها، ومن هذه العلاقات التي تقيدني أحاول الانطلاق، الانطلاق يأتي وحده وبدون قرار مع الأصدقاء، لكن الاصدقاء هم أحدى الحلقات التي أعيش فيها، اذا انغمست فيها فقط سأصبح معزولا عن المجتمع، كل واحد منا له أصدقاء وله أهل، المشكلة مع الأهل وهم من يجب أن يتغير، دعك من الافكار المثالية التي تضعها في رأسك، فالواقع لايمكن مواجهته فقط بمجموعة جمل مرتبة في دماغك، المهم أن تعيش الحياة بكافة تفاصيلها، أنا لست من ذوي الياقات البيضاء الذين يتربعون على مقاعد وثيرة ويحلون مشاكل العالم، القذارة التي أشعر بها لايمكن تغييرها الا بالغوص فيها، قد تتسخ، لابل ستتسخ بالضرورة، لكنك ستظل نقطة مضيئة في هذه الأوساط.

الوالد لايمكن تقدير حالته بالضبط، يتحسن اليوم قليلا عن اليوم الذي قبله ويعود في اليوم التالي أسوأ من وضعه في الأيام السابقة، أي حال هذا؟ حالة من اللاوعي يعيشها، يطلب من مرافقه أن يلمس اصابع قدمه، أن ينهض ليراها، ينام قليلا، يصحو بين فترة وأخرى، ينادي زوجته، يقول: أعطيني "الحطة والعقال" حتى ألبسها وأخرج.

حين يأتي موعد الغداء أو العشاء أمسك بالملعقة وصحن الشوربة لاطعمه، يرفض.

- يابا، افتح فمك، هذه الملعقة فقط.
- قلت لك ابعد عني، سنأكل معا، ناد اخوانك.
- حسنا، خذ هذه أولا.
- والله لو خرج أخي من قبره ما أخذتها.

أغير من نبرة الكلام معه، فاذا أراد أن لايأكل طوعا فيجب أن يأكل كرها، أمسك بيده، اقترب نحو أذنه وأصرخ فيه: هيا، افتح فمك مثلما

أطلب منك. يأكل قليلا ثم يبدأ بالسباب والشتائم، أخفف من لهجتي قليلا، فأنا أعرفه، لن يقبل السيطرة عليه بالقوة، فهو القوي شابا وشيخا كما يعتقد، بالمعاملة الحسنة تستطيع أن تأخذ منه ما تريد، أما بالقوة لا، سيفضل عليها الموت، فحين كنا نتناول الفطور ذات مرة قال: لماذا كل هذه الأنواع من الأكل؟ اليس هذا تبذيرا! لم استطع تحمله، نظرت نحوه فاذا به يلبس ما تلف من الثياب رغم ان خزانته مليئة بالجديد الذي لم يلبس مرة واحدة، يضع حراما على كتفيه إتقاءا للبرد رغم أن عنده ثلاثة معاطف معلقة هي الأخرى في الخزانة، استفزني، امسكت به من ياقته، وقلت: أتريدني أن ألبس مثلك! انظر لنفسك في المرأة، إنك بالضبط مثل "النور" قفز من مكانه، أزاح المقعد جانبا، فنهضت وأمسكته من يديه، حاول افلاتها فلم يستطع، قال: أتمسك بي يا حيوان! والله لاذبحنك الآن وان لم استطع سأذبح نفسي، سأنتحر. شفقت عليه، رأيت الحاج اسماعيل يشعر أنه يتهاوى، يتعالى شهيقه وزفيره، قالت والدتي: اتركه، هل جننت؟ ماذا تفعل! أمسكت بي وابعدتني، ركض نحو المطبخ، أمسك بسكين، وقبل أن يدير وجهه نحوي كنت قد أمسكت بها، صاح: ابعد عني يا حيوان، سانتحر. صدقته، أمسكت به قائلا: هل جننت! قال: طوال عمري وأنا مجنون. ذهبت أمي تصرخ على الجيران ليهدئوه، أمسكت به، أدخلته غرفته وأغلقتها عليه، حاول فتحها، لم يستطع، جاء الجيران، طلبوا مني أن أقبل رأسه ففعلت. أقول: ما رأيك باللبن، فيلطم على خديه ويبصق كل ما في فمه.

- يابا، يجب أن تأكل حتى تعيش.

- لا أريد هذه الحياة، اذهب واحضر أحدهم بسيارته يأخذني للبيت لأموت فيه.

- أمرنا الطبيب أن تبقى في المستشفى.

- ملعون أبوه، قلت نادهم، واذا كنتم لاتعرفون الطريق، إسألوا الجيران.

- حسنا. نام الآن.

- انزلوني، أريد أن انزل.

- اين ستذهب؟

- انزلني أولا، لن أقول لأحد - ويمسح على فمه مؤكدا ذلك - اذا كنت لا تصدق، جربني، تأكد بأنني لن أخبر أحدا، واذا ما نكثت بهذا العهد فاضربني بالحذاء، لاتدع أحدا يسمعنا، أنزلني حتى أذهب للبيت، أنا تعبان، أريد أن أنام، تعال ارفعني، ضع يديك تحت إبطي.

أمسك بيديه طرفي السرير محاولا النهوض دون فائدة، استراح قليلا، طلب ماءا فسقيته.

قال ماهر: هذه الحالة سيئة جدا، أسوأ من البارحة بكثير، فهو يعيش الآن حالة لاوعي بمرحلته الحادة، يخلط بين الماضي والحاضر واذا استمر هكذا ستكون مصيبة لمن يرعاه.

- وهل يمكن للعناية به أن تحسن من حالته؟ سألت.

- لايعتمد هذا على العناية، بل يعتمد عليه، على مدى تقبله الواقع الذي يعيشه، يجب أن يعرف اولا أنه في مستشفى، يجب أن يعرف أن العملية أجريت وأن رجله قطعت.

- وماذا سيكون العلاج الناجع له؟

- ما يفعلونه هنا.

- وماذا بعد؟

- كل شيء يعتمد عليه، يجب أن يفهم كل شيء، السكري وصل الى الاوعية الدموية في الدماغ، هذه من أصعب الحالات، اذ لو أصيب شاب بحالة لاوعي كهذه فمن الصعب معالجته، فكيف يكون لرجل يقترب من الثمانين، انتم: انت وأمي بالذات ستتحملون كل شيء في المستقبل، نحن سنسافر قريبا جدا، أما أنتم... الله يساعدكم.

- هل تعتقد بأن صحته ستتحسن؟

- هذا ليس مهما الآن، الأهم إدراكه العقلي، لان الانسان يمكنه التعامل مع القاصر جسديا، لكن من الصعب عمل ذلك مع القاصر عقليا.

جاء الطبيب، طلب أن نتمشى به في الممر على المقعد المتحرك، قال: هذه مرحلة أولى لاستعمال "الممشى"، حملناه على مقعده بعد

بحث طويل في كل أقسام المستشفى، في الطابق الثاني، الولادة والأطفال، لا يعطونها لأحد، أحضرنا مقعد عيادة الطوارىء، مقعد يسير على عجلات حديدية، فالمطاط المحيط بها قد تلف، صوتها يحدث ضجة في الطابق، تمشينا به في الممر، قال الوالد: الى البيت.

رحنا به جيئة وذهابا على طول الممر، وعندما وصلنا الدرجات قال: توقفوا، هيا بنا، من هنا، هذا هو الباب، هيا ساعدوني.

طلبت إذنا من الممرضة بالخروج الى الساحة الخارجية، قاست ضغطه، اعطته ابرة، وقالت: انزلوا.

انزلناه، درنا به في الشمس، قال: من هنا، هيا بنا الى البيت، خذوني عند الحاجة، لاتنسوا ملابسي. وكلما توقفنا حاول النزول فنرجعه كما كان، قدمه اليسرى والوحيدة تلامس الأرض، نرفعها ونحاول إقناعه بأنه لايستطيع المسير، ونضحك، الفرحة تغمرنا، فرحة أن يرى الشمس وساحة المستشفى، قال: خذوني على باب الدار.

- هذا هو باب الدار.

- قلت لكم على باب الدار.

حاولت أن أذكره بنكات يعرفها، اقتربت منه قائلا: "عند المنام سكتوا"، "مثل صوص الجغلة"، "لقية حمود"، لكن ذلك لم يثر به شيئا، ظل محدقا في الأرض ومحاولا النزول كما لو كان يريد التقاط شيء بلا فائدة.

أعدته للسرير، أحس بالتعب، استراح قليلا، حاول مرة أخرى، أمسك رجله، تلمسها، أيكون قد عرف أن رجله قطعت؟ لا، ليعرف ذلك وحده، فهو يكاد يعرف ذلك بنفسه، أمسك رجله، وقال ملتفتا نحونا باندهاش واستغراب: هل قطعوا رجلي؟! أين رجلي! آخ... آخ، قطعوها! قطعوها... قطعوها... قطعوها، بكى، أفلتها، تحسسها مرة أخرى وقال: قطعوها... الحمد لله... الحمد لله.

هل يعني ذلك أنه عرف ما حصل؟! هل يستعيد ذاكرته بعد الآن؟! وجهت الأسئلة لماهر فقال: لا، فهذه فترة يصحو فيها، يستعيد ذاكرته، لكن الحالة العامة سيئة.

- كيف؟

- قال الطبيب بأن هناك تغثرات في الدم، وفي الدم الذي يصل الدماغ أيضا، يصل الدم بعض الخلايا ويحتجز عن الباقي مما يجعله يغيب عن الوعي في أحيان كثيرة.

- ولماذا يشرب الماء بكثرة؟

-اذا أكل شخص حلويات، فانه يحتاج لشرب الماء حتى يخفف من تركيز السكر، وحتى الملح في حالات أخرى، وحالته بالضبط هكذا.

في البيت، صرخت نزهة بي: لماذا كنت تضحك؟

- وماذا يعني ذلك؟

- يلعن أبوكم، تضحكون كأنكم في محششة..

- هل معنى ذلك إنك تريدينا أن نبكي؟

- لم أنسى بعد الضحك الذي ضحكته قبل يومين، الجميع كان يتطلع نحوك.

- أتريدينني أن أرضي فلان وعلان، القصة معروفة، فلان يأتي للمستشفى نصف ساعة ويذهب بعدها لبيته، اذا جاء مرة كل يومين بالتأكيد سيبكي، أتريدينني أن ابكي كلما شاهدت دمعة من أحدهم؟ اسمعي يا اخت، اسمعي يا ست: لقد بكيت كثيرا قبل أن تأتي، لن أجبر نفسي على البكاء، سأبكي لوحدي وتلبية لمشاعري، ولن أفعل ذلك إرضاءاً لك يا مختارة.

- ماذا تقول يا قليل الحياء! ما هذا الكلام!مختارة! أتريد أن تفعل مثل اشكالك الحاقدين؟

- اشكالي ليسوا بحاقدين، انت واحدة رأيت زوجك والتقيت به بعد طول غياب، رأيتينه مرة واحدة، ورأيت أن لك أولادا وبيتا، ذهبت للسعودية وتعتقدين أنك في اوروبا، حسبت أنك ملكت الدنيا، ظننت أن كل الناس دونك، لتعلمي يا ست بأنك تعيشين في أكثر المناطق تخلفا، نحن أفضل منك بكثير، نحن هنا نعرفك بالضبط كما نعرف غيرك، نعرف موقعك بالضبط، كل فلوسك لاتهمنا، وهذه الشخصية "المحمضة" لانريدها ايضا حتى لو كنت اختي، اجعلي من نفسك

مختارة على زوجك واولادك اذا أردت،وعلى كل الذين يقبلون بك، أنا لست بواحد منهم، لقد تصديت لأبيك وهو في أوج قوته، فهل تعتقدين أنني سأقبل بسلطتك! اذهبي عند سلاطينك هناك.

- أخرس، أنتم مجرد نوّر.

- أنحن النوّر يا نوّر! هل يعز عليك أبوك أكثر مني! ماذا فعلتم له؟! كل ما فعلتموه هو أنكم كتبتم في رسائلكم: اعتنوا بالوالد، اعتنوا بالوالد، اعتنوا بالختيار، اياكم أن تقصروا معه. ها هو أبوكم، افعلوا ما كتبتموه، اذا غبت عنكم ساعة تسألون: اين كنت؟ لكن أين كنتم انتم طوال هذه الفترة؟ ماذا فعلتم له؟ أتعتقدون أن كل شيء يشترى بفلوسكم؟ أرايتم أن فلوسكم تكاثرت! أتريدين أن أعمل مناحة أكراما لخاطرك! عندما تأتون هنا تتباهون بلباسكم وبسفراتكم هنا وهناك، تربيتم على اعطاء المشورة، وضعتم أنفسكم في الأعالي، استيقظوا على أنفسكم، نحن كبرنا ولم نعد صغارا، لقد أصبحنا نفهم كل تصرفاتكم.

- انتم مجرد صعاليك.

- والله لو فهمت ما تعنيه كلمة صعاليك لما قلتها، لكنكم تفهمونها بطريقة أسيادكم، والآن تريدون أن تولوا أنفسكم أسيادا علينا، اسمعي يا نزهة: "زمن أول حول"، قلت لك كبرنا، واذا كنت لاتستطيعين سماع هذا الكلام ارجعي لاسيادك، الواحد يضحك حتى في العزاء، انتم الكبار عاشرتم الوالدين عندما كانوا شبابا أما نحن فقد عاشرناهم في شيخوختهم، احتملنا قرفهم وتريدون أن نحتمل قرفكم أيضا، كل الناس، الآقارب، اسلافك يقولون عنك مختارة فلماذا يمنع علينا تلفظها؟

- كلهم حاقدون وأنتم كذلك، تعالي يا بنت حتى نذهب عند جدك.

* * *

-١٠-

الوالد ينام الآن على السرير الوحيد في الغرفة ٣١٢ كتب على بابها بالانجليزية: "في ذكرى عبد قاضي جغب"، الغرفة تطل على بلكونة مشتركة لثلاث غرف، بعض المرافقين ادعوا بأن هذه الغرفة مخصصة فقط للمسيحيين، عملية النقل هذه جاءت بعد تفكير طويل بيننا نحن الأخوة، تباحثنا مع الاطباء، بعضنا قال: سننقله لغرفة فيها عدد قليل من المرضى، ستكون أكثر نظافة، وبهذا الجمع الكبير من الزائرين لانزعج الكثير من المرضى حين نكلمه، سنهيء جوا أفضل للاقارب ليوقفوا من حملتهم الاعلامية بنقله لمستشفى آخر. آخرون قالوا: العيش في هذه الغرفة التي تحتوي على ثمان أسرة أفضل، فنحن أولا نعرف كل من في الغرفة، وهم يعرفون أن هذا مستشفى، زائرو الوالد كثيرون كما ترون، يصل عددهم أحيانا في نفس اللحظة الى عشرين، هذه الغرفة تتسع لهم، ان قربها من الدرجات يعطيها أفضلية، اذ يستطيع البعض أن يجلس عليها حين يكون هناك اكتظاظ، وثانيا لن يكون بامكاننا مراقبتة طوال اليوم ثانية بثانية بينما في الغرفة ٣٠٢ سيساعدنا في ذلك المرضى والمرافقون، فما رأيكم؟!

بعد أخذ ورد اتفقنا على أن ننقله الى غرفة فيها عدد قليل من المرضى وبذلك نجمع بين الاقتراحين، ثم نقلناه فعلا ولكننا أرجعناه بعد نصف ساعة بسبب اكتظاظ الزائرين، ووجدنا مريضا مزعجا اكثر

من مريضنا، سوء التهوية كذلك لم يساعدنا على البقاء هناك، أحد الأطباء والذي أصبح أحد أصدقائنا قال: لننتظر الغرفة ٣١٢ حتى تفرغ وننقله، انتظرنا يومين وها نحن في الغرفة الجديدة.

شعرت حينها بالانقطاع عن العالم، فأنا لا استطيع مغادرة الغرفة أولا ولانني صرت أشعر بالغربة حين أذهب للغرفة ٣٠٢ ثانيا، لا أسمع سوى صياح المرضى والممرضين، لكنه أصبح باستطاعتنا تنظيف الوالد والغرفة ايضا، أحضرنا اسفنجا وصابونا ووعاء ماء، نظفنا جسده، كل مكان فيه، ظهره كان قد اكتسى باللون الأحمر وجف، قالت الممرضة: يجب أن تتنبهوا لذلك، هذا يؤثر على أجهزته الداخلية: المعدة والكلى، نحن الآن في مصيبة واحدة وستتحول الى مصائب، يجب أن تقلّبوه دوما، يجب أن تنظفوه. ذهبت وأحضرت سبيرتو، بللت به يدها ومسحت على ظهره وآليته، وفعلنا نحن ذلك بعد مغادرتها، وظللنا نكرر العملية هذه بين فترة وأخرى.

الآن يجب تنظيف الغرفة، بحثت عن "ممسحة" و"مكشطة" وبعد حوالي نصف ساعة وجدتها عند احدى المريضات، كانت غرفتها كالفندق، خبأتها عندها، عندما سألتها قالت: اسأل الممرضة. قلت: اخبرتني الممرضة بأن أدوات التنظيف عندك، قالت: خذها لكن بشرط أن تعيدها بسرعة وألا تخبر احدا أنها عندي. نظفت كل شيء، الأرض، الحمام، السرير، الحائط وجزءا من البلكونة، صرت الآن استطيع الجلوس على الأرض واستقبال الجميع.

تجمع الأقارب في الغرفة، أخبروني بأن عارف تعارك مع شباب من الخليل كانوا يمرون بسيارة، توقفوا قربه مقابل "عمارة حنانيا وخراز"، طلبوا منه وبما يشبه الأمر أن ينادي على صاحب المتجر المقابل، لم يجبهم وأكمل مسيره، فقالوا له: صحيح أنك لاتستحي. توقف، تأكد بأنهم يقصدونه، هجم على السيارة، فتح بابها، سحب أحدهم منها وضربه، نزل كل من فيها، التفوا حوله وضربوه، حين جاء قال باكيا: والله لقد تذكرته اليوم، عمي الحاج كان يواجه كل من يقترب من أي واحد منا، لم يخف أحدا، كان يتصدى لهم بالحجارة،

بعصاه، بعضلاته، بقوته كان يهزم كل من يقف في طريقه، انظروا اليه الآن ممدد على السرير، عمي هذا كان يحمل العصا بيسراه ويضرب الحجارة بيمينه،عصاه كانت مثل الترس يرد بها الحجارة المصوبة نحوه، لم يكن يخاف أحدا، قبل خمسة عشر عاما وحين ضربنا على المنارة من قبل أهالي دير طريف بسبب منافسات تجارية، وحين جاءوا للصلح وشرب القهوة، قال عمي: غدا ان شاء الله سنشرب القهوة عندكم. قال الطريفي: لا ياحاج اسماعيل، طوال حياتنا ونحن نساند بعضنا البعض وتريد اليوم أن نتعارك! اسمح لي أن أقبل رأسك. فقال: هذا صحيح أننا أخوان، لكن من الواجب أن نشرب القهوة عندكم غدا ان شاء الله. وبالفعل حمل عصاه مبكرا، وقف على المنارة، حين مر أحد شبابهم يعتلي دراجته، ضربه، أوقعه أرضا، فامطرت المنارة حجارة، أغلقت الطرق، لم تستطع الشرطة التدخل، امتلأ متجر الطريفي بالحجارة وشربت القهوة في تلك الليلة ايضا، اليوم تذكرناك يا عمي، والله لو رأيتهم ثانية سأقتلهم، أيتطاول هؤلاء على عائلة سليمان!؟

- أظن أن المشكلة انتهت، ضربتهم وضربوك، إنسى الآن كرامة سليمان وعائلته.

- ماذا تعني؟ نحن أفضل من الآخرين، لقد ضرب أحد أفراد عائلة سليمان.

- ليس هناك إنسان أفضل من الآخرين بسبب انتمائه لهذه العائلة أو تلك، هؤلاء الذين تعاركت معهم بالتأكيد ينتمون لعائلة ايضا، لو أخذت الأمر ببساطة تحل ببساطة ايضا.

حملت الوالد وأجلسته على المقعد المتحرك وأخرجناه على البلكونة، صرنا نحدثه، لفتُ انتباهه الى الشارع، الى الشجر، الى المشاة دون فائدة، خرجت به للممر قال: خذوني عند دار "أبو زكية"، نريد أن نذهب لنقل أكياس الشعير والقمح، ناد على ابو "هاطه"، عمك العبد، ناد عليه ليحمل معنا، انزلوني عن الدرجات ومنها سنصل الى "المصطبة"، مررنا عن المرضى يتمشون في الممر، طلب أن يتوقف، لم أنصع له،

قال: يلعن أبوك، اذا كنت لاتعرف الطريق توقف وأسأل عنها، ناد عليهم. نادى على المرضى في الغرف بينما كنت أشير لهم أن لا يأتوا، أوقف إمرأة مرت بجانبه وقال لها: أين الحد بين العرب واليهود في البلد؟ نظرت نحوه باندهاش فقال: أين الزفة؟ قالت: لايوجد زفة يا حاج. وذهبت قائلة: الله يهوّنها علينا. وضحكت.

لامكان للراحة في البيت أو المستشفى، الأقارب يملئون البيت طوال النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل، الصغار والكبار في البيت، يشربون شايا، قهوة، كولا وسط الاحاديث عن امريكا، اسبانيا، الكويت والسعودية، كل يتحدث عن الدولة التي يعيش فيها، يتحدث عن مشاكله وانجازاته، واذا التقى اثنان انتقدا الثالث، مرة يضحكون ومرة يتصايحون، وكلما دخل شخص جديد حتى لو كان طفلا صرخ أحد الأخوة أو الاخوات: نريد شايا، نريد قهوة. لا البيت أفضل من المستشفى ولا المستشفى أفضل من البيت، لا أستطيع الذهاب لبيتي حتى لا أتهم بالهروب، اضطررت للبقاء وأصبحت جزءا مما يجري.

طلبت رفقة ابنة نزهة لتزوجها لابنها، اجابت: ابحثوا عن فتاة غيرها.

- ماذا تقولين! نحن أخوات، واذا لم تقبلي أنت أن تزوجينا ابنتك، لمن سأذهب!

- ابنتي صغيرة، عمرها ثلاثة عشر عاما فقط.

- لايريد أن يتزوج الآن، نريد الموافقة المبدأية فقط، فهو يحتاج ثلاث سنوات لاكمال دراسته، أم تريدين أن يتزوج من أوروبا! ألا ترين ما حدث مع حسان وماهر!

- انتم أحرار ولا استطيع أن أعطيك الموافقة المبدأية التي تقولين عنها.

- الولد يحبها ويريد أن يتزوجها.

- أولا: من العيب أن يحب انسان قريبته، ثانيا: لقد رآها ساعات فكيف أحبها!

- يا اختي: كل الشباب الذين في مثل سنه يتزوجون، هو لا يريد

الزواج الآن، يريد فقط أن يستقر نفسيا، لذلك نريد منك الموافقة.

- لانريد.

- لماذا؟

- أنتم لستم من مستوانا.

- كيف؟! ماذا تقصدين؟ باستغراب.

- انتم لستم من مستونا مثلما سمعت.

- أيعني هذا أنكم تعيشون في عالم غير العالم الذي نعيش فيه؟!

- أفهمي ما قلته مثلما تريدين، كما أن الوالد طلب مني أن لا أعطيكم ابنتي.

- أبي؟!

- نعم، أبي قال ذلك، وأنا أنفذ أوامره أم تريدين أن أعصيه وهو على فراش موته!

* * * * *

عند المساء كنت في المستشفى ثانية، جاءني الطبيب، سألني إن كنت أريد مساعدة. شرحت له الحالة التي يعيشها، يخلط بين الماضي والحاضر، قال: أنعطه أبرة مهدىء؟

- من الأفضل أن تؤجلها يا دكتور.

- اذا نؤجلها ساعة.

لم أطلب منه مهدىء، هو الذي أقترح ذلك، أنا لا أحب استعمال المهدئات، المهدىء يحل مشكلة لفترة معينة لكنه لايحلها الى الأبد ولا يعالج المرض، كان ماهر قد قال لي: هذه حبوب منوم، ضعها في جيبك، واذا شعرت بأنك تود الارتياح أعطه واحدة منها، سينام، ستحل مشكلتك من خلالها، المنوم أقل ضررا من المهدئات التي يعطونه اياها. أخذتها، وضعتها في جيبي، لم أستعملها مطلقا، شعرت بانني لو استعملتها سوف اكون السبب في مضاعفات لا أعرفها حتى لو لم يدر أحد بذلك، لم أخبر أحدا، أمسكتها والقيتها في المرحاض.

إمرأة من يطا، مرافقة لمريض في الغرفة المجاورة، جاءت مسرعة، نادت علي، أشارت بيدها أن آتي بينما انسلت هي داخل الغرفة.

- نعم يا حاجة!

أطلت برأسها وأشارت بيدها أن أتبعها.

- أنا؟!

- أنت أو أي شخص آخر.

- ماذا؟ واقتربت منها مسرعا.

- تعال هَلِّل. انه يفارق الحياة.

- من؟

- أخي.

- وماذا أفعل؟

- هلل.

- كيف؟

- ألا تعرف أن تُهلِّل؟

- لا أعرف، لا أعرف.

القيت نظرة سريعة على أخيها، فاذا بسريره قد وجه جهة القبلة، ربط أسفل ذقنه بأعلى رأسه بشال أبيض، كان ميتا على ما يبدو، طلب مني مرافق أن أنادي الحاج في الغرفة الثالثة المطلة على البلكونة، ذهبت مسرعا: يا حاج. يا حاج.

- ماذا حدث؟

- تعال هَلِّل.

جاء مسرعا، وحين وصله بدأ بالقول وبأعلى صوته: أشهد أن لا اله الا الله،.....، فاذا بباب الغرفة يفتح ويدخل الطبيب، وجدنا متجمعين حوله، فصرخ: ما هذا؟! ماذا تفعلون؟! وبأي حق تغيرون موقع السرير؟!

- لقد كان يودع الحياة قبل لحظات. ردت اخته.

- هيا أخرجوا.

خرجنا، وقفنا نراقب ما يحدث في الداخل من النافذة المطلة على البلكونة، جاءت الممرضة لتقيس ضغطه، خرج الطبيب وقال: سيموت خلال خمس دقائق.

سرت في الممر أستعيد ما شاهدته واضحك، ماذا يعني هَلِّل! لماذا لم تطلب الطبيب! لماذا لم تستدع الممرضة! كل ما فعلته وببساطة أن أدارته نحو القبلة، ربطت رأسه وبقيت تنتظر موته، إنها تؤمن بالقضاء والقدر، هل كان بامكان الاطباء أن يفعلوا شيئا له! لا أظن، هي لا تؤمن بذلك أصلا اذ أنه اذا جاءت نهايتهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، لم تبك، كانت صلبة، نادتني وقسمات وجهها كما هي، وقفت بجانب الطبيب وقالت: انه يموت. لم تصرخ، وعندما أتت الممرضات لنقله لغرفة الأموات كانت دموعها تنهمر بهدوء، لاتسمع صوتها، دخلت غرفته، جمعت ملابسه، أمسكت بعلبة حلويات أعطتها لاحدى المريضات، غابت نصف ساعة، جاء أهله، طلبوا أخذ الجثة، أجابت الممرضة: المكتب مغلق وبدون أوراق ثبوتية لا تستطيعون. صرخ بها أحدهم، يضع العباءة على كتفيه: ابتعدي يا بنت، نستطيع أخذه رغما عنك.

- يا حاج، الوقت مساء، اذا أخذتموه الآن لن تدفنوه اليوم، تعالوا غدا في الصباح وخذوه.

صرخ في وجهها قائلا: ابتعدي يا بنت، سنأخذه وقتما نريد، يجب أن ينام الليلة في بيته ويسهر مع أهله وأقاربه.

صورة الجنازة ماثلة في مخيلتي، صورة أخوانه وأمه، ها هي قد فقدت أخاها، يبدو أنه الوحيد والا لما رافقته، ها هي الأمنية المخفية تتحقق، تظل تحتفظ بها، فهي مغروسة داخلك، تتمناها دون أن تصرح بها حتى لنفسك، لا تتلفظها أبدا، أما حين تحدث تكون جارحة، ماهر قال بالأمس بأن هناك اقتراحا في دول اوروبا غير موافق عليه حتى الآن، يقضي الاقتراح بجواز إنهاء حياة الانسان حين يكون في عذاب دون أمل بالشفاء، بالضبط كما يفعلون مع الخيل، ليس بسبب أن فائدته في الخدمة بطلت، لكن لايقاف عذابه، فالدواء يعطي للمريض إما لعلاج المرض نفسه أو للتخفيف من الألم، وحين لا يكون هناك أمل بالشفاء تبقى المعالجة، أحيانا تكون المعالجة بالقتل، الدول الاوروبية رفضته، حالة المتوفي كانت من الحالات الميؤوسة والتي

تتلاءم مع مقدمي الاقتراح، "فرويد" هو الذي طلب من اطبائه أن يقتلوه، لكن، هل يحق لانسان أن يسلب حياة انسان آخر!! لازالة مرض اجتماعي مثل القتل، المخدرات والسطو تعالجها بلدان كثيرة بالقتل، الحكم بالاعدام، لكن في حالة المرض الجسدي لا يعالج بهذه الطريقة، نظل ننتظره حتى يموت وحده دون أن تفقد ولو بصيصا من أمل في استعادته عافيته، نحن نعرف بأن مريضا سيموت ولو بعد حين، نعد أيامه وساعاته دون أن نتدخل بها، وليس بمقدورنا فعل ذلك، فحياته مرتبطة بمدى استجابة جسده لهذا المرض، ننتظر القضاء والقدر فقط لانه إنسان.

-١١-

لهيب الشمس تحسه في كل جانب من الغرفة، في الممر وعلى البلكونة، لا أملك خيارا بمغادرة المستشفى، لقد كرهته، الملل الذي أصابني لا أستطيع معرفة أسبابه المباشرة، لا أملك سوى بصيص من أمل أراه هنا أو هناك وسط زخم الاحداث والحياة، لولا هذا البصيص لما تحملت هذه الحياة مطلقا، لكنت طلقتها منذ زمن، يجب أن أتمسك به، أنا متأكد بأنه سيكبر، الحياة ستتغير، الحاج اسماعيل يسيطر علي ليس بشخصه، بل بارتباطاته الكثيرة، الحاج اسماعيل في البيت، في المستشفى، في الشارع، في العمل، في اسلوب التعامل، في موقع اتخاذ القرار، في كل شيء حتى في الاطفال، سيتغير العالم لامحالة، هذا هو الأمل الذي أعيش عليه ومن أجله، لكن ذلك يحدث ببطء شديد وبجهد عال، ربما أنني أساهم بصنعه الآن ويصنعه غيري، لا.. لا، انني هنا وفي هذه الغرفة اكتشف كيف أغيره، لكنني في الواقع احافظ عليه، التقط ما تبقى منه، انه يترسب في داخلي، يوما بعد يوم، كيف أنساه! ليس من المهم أن أنساه، المهم أن أعرف ما يترسب في داخلي، من لا يحس بالظلم لا يستطيع أن يقف ضده، هناك الكثيرون يتكلمون وبأعلى أصواتهم عن الظلم لكنهم لم يعايشوه، يتكلمون عن الفقر وهم يعيشون في "فيلاتهم" ويتنقلون من بيت لبيت في سياراتهم، يتكلمون عن الثقافة التحتية وهم يعلمون أولادهم في "أرقى"

المدارس، بل يعلمونهم العزف على البيانو والجيتار وينسون الشبابة والميجنا، أنهم يهربون من الواقع بينما يعيشونه، هناك من يتحدثون في السياسة والقمع رغم أنهم لم يعيشوا في المخيمات ولم يدخلوا السجن. لا بأس، انهم يتكلمون عنا، لا بأس، انهم يناصروننا، أنا لا أحقد عليهم فليس بالضرورة أن تصل لنفس النتيجة حين تمر بنفس التجربة، لكن أمثالي يتكلمون عن واقع عايشوه ولم يحتاجوا كتبا لمعرفتة، الكتب ساعدت في صقل وتوجيه التجربة، فليكن، إننا نصنع الحياة معا، لكن ما يثيرني، ويغيظني أيضا حين يتبجحون بتصرفات يتكلمون عنها بانها رجعية، يقولون ذلك وهم يتقززونها، نعم إنها مقرفة ومقززة، الفرق بيني وبينهم إنهم جاءوا لهذه القناعات من فوق دون أن يجربوا نقيضها، وأنا أصل إليها من تحت، درجة بدرجة وببطء شديد، لاضرورة للمغالاة فالحاج اسماعيل يقيدني دون أن أدري، والغرب يقيدهم أيضا دون يدروا، هل عانوا من الحاج اسماعيل كما عانيت أنا؟ لست متأكدا، الحاج اسماعيل ما زال يأكل من عمري، وسأبقى محافظا عليه.

دخل الدكتور شاكر، ألقى التحية، وقف بجانب الوالد، مد يده ليسلم عليه، التفت نحوه، حدق به ، حاول النهوض، فسأله: كيف حالك يا اسماعيل؟

- ماذا فعلتم بي يا دكتور؟

- حسنا، انت بخير يا اسماعيل.

- يا دكتور: لقد احضرتموني هنا وقلتم بانكم تريدون معالجة اصبعي، أنا هنا بانتظاركم منذ فترة طويلة، أريد العودة للبيت، قلتم بأنكم ستجرون العملية ولم تفعلوا.

- بل أجريت.

- ماذا؟

التفت الطبيب نحو الممرضين، طلب منهم أن يأتوا بالادوات حتى يزيل "الغرز"، تدخلت قائلا: ماذا تريد أن تفعل يا دكتور!

- نريد فك "الغرز"، وبعد أيام سيعود للبيت.

- لا أوافق على فكها يا دكتور، فاذا كان يداعب رجلهبوجودهافكيف عند إزالتها، سوف يفتح جرحه، بالأمس أزال اللفافات وحكها.

التفت نحوي، وضع يديه على خاصرتيه وقال: بم تأمر أيضا؟!

لاحظت انني تدخلت في عمله، هدأت من طريقة مخاطبتي له وقلت: أنا لا آمر بشيء، هذا عملكم، أحببت أن أضيف ملاحظاتي.

- إذا، لو سمحت أخرج على البلكونة.

خرجت يتملكني شعور بالأسف فارتد إلى داخلي، لكن ... اسماعيل هذا ليس كغيره، طوال الوقت لا يهدأ، يمسك رجله، يبحث عنها، يداعبها لحظة ويتركها ليمسك بها مرة أخرى، لا أنا ولا غيري نستطيع أن نقف رقباء عليه، إذا فتح الجرح فشلت العملية، تحتاج لعملية أخرى، هل يفكر الطبيب مثلي؟ بالتأكيد لا، هو يتعامل معه على أنه مريض بينما أتعامل انا معه على أنه والدي.

فتح باب الغرفة، وقبل أن يخرج الطبيب، قال والدي: يا دكتور: لقد جئت هنا وصحتي بحالة جيدة، انظروا ماذا فعلتم بي، رفع رجله ليريه إياها، قال الطبيب: صحيح، وخرج ممتعضا.

دخلت عنده، طلب أن أحضر له العصا، قلت: لماذا تريدها؟

- لا أريد شيئا، أعطني العصا فقط.

- لماذا؟

- والله لأكسر رؤوسكم، أنتم قطعتم رجلي، ناد على الطبيب، والله لسوف اكسر له رأسه، أنا الحاج اسماعيل، أنا من سمى الناس اولادهم باسمي حتى يصيروا مثلي، والآن يقطعون رجلي! والله لسوف أقطع ذريتكم .

حاول النزول عن السرير، أمسكت به وأعدته، أمسك يدي، شدني نحوه وضربني، تعب قليلا ثم قال : ناد عليهم، أحضر العصا.

جاء ماهر، اقترب منه وقال: ما بك يا والدي؟ أنت رجل محترم. هدأ قليلا، أراح جلسته وقال: أريد العودة للبيت يا ماهر.

- هل عرفتني ؟

- يلعن ديـــن، أتحسبني مجنونا؟

- انت عاقل ، استرح قليلا.

- والله لالعن أبوكم، ابتعدوا عني.

- وحد الله.

- افرض انني عاهرة وطلبت مساعدة منكم، ألا تساعدونها؟

- عندما تشفى ستعود للبيت، لو كنت تأكل لعدت للبيت منذ فترة.

- أأتيتم بي هنا من أجل اطعامي! أنا لا أريد طعامكم، استطيع أن أطعم كل أهالي بلدتك، إذهبوا وإسألوا عني.

ارتجفت يداه، حاول أن يضرب برجله، رفعها في الهواء دون فائدة، أمسك بالسرير وحاول النهوض، طلبت منه أن يخرج ويتركني معه، امتعض ماهر من طلبي وخرج، أجلسته على السرير جيدا، أمسكت برجليه ويديه، نبضه يزداد قوة، شفتاه ترتجفان ويداه أيضا، اعتقدت أنه سيموت اللحظة، الجلطة ستأتيه لا محالة، لم يتفوه بكلمة، طال الوقت على هذا الحال، ربت على كتفيه كما الطفل الصغير، هدأ قليلا وذهبت للبيت.

* * * * *

البيت يعج بالأقارب، فاذا أردت أن تبحث عن أيهم وجدته في مخيم قدورة، وفد يجيء ووفد يذهب، شخص يدخل وآخر يخرج، كل الاحاديث التي تودها تجدها هناك وكل ما لا توده تجده أيضا، وجدت الاخوة والاخوات في مناقشات لا أول لها من آخر، يشتد النقاش حينا ويخفت حينا آخر.

- اسمعوني: جاء عارف صباحا وقال: أذا كنتم لا ترغبون المجيء لبيتي لتناول الغذاء فساحضره هنا.قال شوكت

- نحن جئنا هنا لزيارة الوالد ومتابعة حالته واجراء العملية، لم نأت للعزائم ولا لتناول الطعام في بيوت الغير، وبالتالي يجب أن نبلغ عارف بأن لا يحضر شيئا هنا ولا نريد الذهاب عنده.

- لو ذهبنا لتناول الطعام عنده فأنه سيكون أول من "يأكل لحمنا"

بعد مغادرتنا.

- ماذا يعني لو أتيتم لبيتنا؟! اذا فعلتم ذلك فانكم تزورنني، لكن أن تذهبوا لبيوت الآخرين فالأمر غير مقبول، اذا أتيتم لبيتي فانكم ترفعون من قيمتي، واذا لم تأتوا فان الناس بما في ذلك زوجي سيقول انظروا كيف ساءت علاقتهم ببعض قبل أن يتوفى والدهم.

- أنا مسافر بعد يومين وانتم كذلك، لنحافظ على احترامنا، لقد أقسمت أن لا أدخل بيت أحد بما في ذلك بيت اختي، لقد قدمت خدمات كثيرة لها: الهدايا ومساعدتها في القدوم لامريكا ولم أسمع في يوم من الآيام مجرد شكر.

- اسمع يا حسان: اذا خدمت أحدا فانك إنما فعلت ذلك لاخواتك، هؤلاء اللواتي ربينك وسافرن معك من بيت لبيت أيام الدراسة في بيت عور وبير زيت وعمواس ورام الله، لقد خدمنك مثلما خدمتهن، انت فعلت لهن أقل مما فعلن لك، فهل مثلا تقدم لنا كل سنة "عيدية"! لسنا بحاجة لفلوس أحد، لكن اذا فعلتم ذلك ترفعون من قدرنا أمام أزواجنا، لانريد "لفا ولا دورانا"، أخرسوا الاصوات التي تنهش ظهوركم. قالت نزهة.

- هذا كلام فارغ، أنا قدمت الكثير لاخواتي، فلوسا وهدايا ووالدكم هذا الذي ينام في المستشفى الآن استنفذني، صرفت على بقية أخواني حتى تعلموا واصبحوا رجالا. باختصار لن نذهب لبيت أحد، أما اذا أرادوا أن يحضروا الطعام هنا فلا نستطيع منعهم، هذا هو القرار، انتهى الحديث. قال شوكت.

تبدأ الهمسات بين هذا وذاك، يقطع الصمت حسان قائلا: أين القهوة، لم أذق طعمها منذ الصباح، لم أسمع أحدا قال بأن حسان جاء من امريكا متخلفا عن عمله واولاده وزوجته ولنعمل له شايا.

- لم يطلب أحد منك أن تظل هناك، غيرك يملك هنا بيوتا ومتاجر، انظروا لعينيه كم هما جميلتان، كان باستطاعتك أن تتزوج أجمل البنات، ذهبت لامريكا ونسيتنا، لكنك تظل جميلا، اذا كنت قد تزوجت من امريكا بقصد الحصول على الجنسية،ما رأيك لو زوجناك أجمل

منها. قالت نزهة.

اقترب حسان منها وقال مصطنعا ابتسامة: كل منا راض بما عنده ولا يسمح بتدخل أحد في شؤون الآخرين.

انطلقت الضحكات، ساد جو من المرح وشربنا القهوة بينما رفضت رفقة شربها وقالت: لم نطلب منكم أن تزوجونا هؤلاء، أنتم وابوكم من ضيع علينا الفرص الكثيرة، طلبني أطباء ومهندسون، فضلتم أن تزوجوني من ابناء بلدتكم، والآن لا يعجبونكم، أنتم يا أخواني ويا من أعتز بهم، لم تزوروا بيتي، لم يتقدم أحد لمساعدة زوجي ليعمل في امريكا أو الكويت، لم آت هنا لسماع كلام كهذا، ما يجبرني أن أراكم هو ألسنة الناس، يقولون: أبوها في المستشفى وتجلس في بيتها، وعندما أجيء هنا اسمع منكم كل ما سمعته، الوالد سيموت ولا يهمكم ذلك، اذهبوا لاولادكم وزوجاتكم اللواتي أنسينكم إيانا، ضيعن مستقبلكم، أنا لا أملك سوى الوالد، اذا مات انقطعت العلاقة بيننا كما ارى، جئت لئلا أصبح مضغة في افواه الناس، أما أنتم فقد جئتم لتأكلوا وتشربوا وتضعوا رجلا على رجل، شوكت في الكويت تحت رحمة زوجته واولاده، حسان في امريكا يجمع فلوسا، وماهر في اسبانيا يبحث عن النزهات.

دخل أحد الجيران، فانقطع الحديث وتحول لموضوع آخر، وصوت يقول: أين الشاي؟ جلست رفقة منزوية في البيت، تتفرس في وجه كل منا وتبعد نظراتها صوب الأرض، الباب والنوافذ، الاحاديث تلتقطها الألسن الا هي، تدقق في الكلمات المقالة واذا علا الضحك تصطنع ابتسامة، مر الوقت وتجاوز الثانية بعد الظهر، لم تذهب لزيارة الوالد، حضر الغداء، طلبت منها أن تنضم الينا، رفضت، قالت: لقد أكلت قبل أن آتي عندكم.

- ولكنك عندنا منذ ثلاث ساعات وحان وقت الغداء.

- والله يا أخي لست بجائعة، عندما أجوع سأكل.

ليس الأمر كذلك بالتأكيد، أمي طلبت منها أن تقترب، قالت: تقدمي يا حرمة. شوكت قال بصيغة الأمر: ماذا بك؟ يجب أن تأكلي، اقتربي من "السفرة" بدون نقاش، تقدمت قائلة: سآكل لقمة حتى لا اكون عثرة

أمام تناولكم الطعام.

بعد الانتهاء، لحقت بها الى احدى الغرف، قلت: ما بك؟

- لاشيء والله.

- بل هناك أمر تخفينه، فهمت المشكلة بينك وبين نزهة لكن لماذا لم تذهبي لزيارة الوالد؟

- أنا ذاهبة الآن رغم ما قاله بالأمس.

- وماذا قال؟ ماذا حدث؟

- طلب من نزهة أن لا تعطينا ابنتها.

- وهل صدقتها؟!

- ليس غريبا على الحاج اسماعيل أن يقول ذلك. وبدأت بمسح دموعها قائلة: ألم يكن الحاج اسماعيل هو من زوجني لعارف رغما عني، ألقى بي بين عائلة كبيرة لأخدم الصغير والكبير منها، لقد تجاوزت الآن الأربعين بينما لا أستطيع أن أعيش حياتي لوحدي مع زوجي واولادي، لم أحصل على استقلالي يوما، ألم يضربني وأنا صغيرة "بالقبقاب"! ألم أنم في المستشفى اسبوعا كاملا حتى شفيت! ألم يرسلني وبعدما بعثر فلوسه لضيوفه واصدقائه للعمل في المستشفى! عملت واشتريت له كل الأشياء الأساسية التي تراها في البيت: الثلاجة، الغاز، البوفيه وأشياء كثيرة غيرها، صرفت عليه وكان يحاسبني على راتبي، وحين أكلتني الألسن بسبب عملي كممرضة زوجني لعارف، هذا الذي كنت احتقره، هذا الذي كان يتنقل من إمرأة لأخرى ومن بلدة لأخرى، تقدم لخطبتي العديدون لكنه رفض، كانت حجته أنهم ليسوا من بيت نبالا، ما ذنبي أنا! صحيح بانني تصديت له واوقفته عند حده عدة مرات منذ تسلمي العمل، ولكن في مسألة الزواج لم استطع مواجهته، كنت أريد المحافظة على سمعتي وسط تقولات أهل البلدة، احتراما له كنت أقول لمن يود الزواج مني: الرأي الأول والأخير لوالدي، اذهبوا واطلبوا يدي منه. لكنه كان يرفض، كنت أريده أن يوافق، حاولت اقناعه دون فائدة، قال: أنا وافقت على عملك في المستشفى ولم اوافق على أن تصبحي عشيقة لأحد، لو كنت عشيقة فعلا لتزوجت كما

اريد، رفضت ذلك محافظة على التقاليد، تطاولت عليه مرة وهربت، لكنني لم استطع تحمل ذلك، عدت له بعد ساعات لاستسمحه وأقبل يديه، ضربني بعنف وبعد اسبوع كان عارف وعمي يأتون لقراءة فاتحتي، قدمت استقالتي من المستشفى واستسلمت لعائلة عمي، أردت أن أهرب من سلطته فوقعت تحت سلطة عمي وابنائه، وها هو الآن يرفض أن يخطب ابني ابنة نزهة، أني أصدق ما قاله، هو لايحبني.

مرت نزهة قربنا، وجدتنا نتحدث، أيقنت أن الحديث يدور حول موضوع ابنتها، قالت: أما زلت تتحدثين عن ابنك!

- بصلاة محمد على رأسك أن ما قلتيه بالامس صحيح؟

- نعم، هذا والدي وأنا أنفذ ما يقوله.

- حسنا يا "مدللة" ابوك، الله يلعن هيك ...

- أخرسي يا كلبة، والله لسوف انتزع شعرك شعرة شعرة لو تلفظت بذلك.

قالت نزهة وهي تقترب منها رافعة اصبعها أمامها، مالت رفقة نحو قدمها، أمسكت بحذائها وصرخت: اقتربي يا حاج اسماعيل الثاني، تعالي أمسكي بشعري.

جاء شوكت مسرعا وقال: ابتعدن يا قليلات الحياء، كل واحدة منكن تحسب نفسها الحاج اسماعيل، تقفن مثل الديكة، والله لو سمعت كلمة واحدة من احداكن لحطمت رأسها.

- اسمع يا شوكت: أنا قرفت كل هذا التعامل، اتحسب أن دموعها تكفي لاثبات اخلاصها لوالدي، أنا من تحملت طيلة حياتي عذابه ونزهة تريد أن تعذبني هي ايضا.

- حسنا، يجب أن يتوقف هذا الكلام الفارغ.

- ابنها لا يناسب ابنتي وليذهب كل في طريقه وكلمة والدي لا تنزل الأرض.

- هل اعتقدتن أن مرض الحاج اسماعيل او حتى موته يعني أن الأمور فلتت، احترام والدنا يجب أن يبقى حتى في حالته هذه، واذا

توفي لا تعتقدن أن الأمر انتهى، لتذهب كل واحدة منكن لعملها، رفقه: اذهبي عند الوالد، نزهة: نظفي البيت وأواني الطعام، ونريد شايا أيضا.

* * *

-١٢-

دعانا شوكت لحضور جلسة مغلقة اقتصرت على الأخوة الذكور فقط، جلسنا في غرفة وحدنا، قال: يجب أن نجلس معا جلسة رجال. أمسك بقلم واوراق بعضها مكتوب بخط اليد وقال لي: كم أنفقت على الاتصالات التلفونية؟

- حوالي مائة دينار، دفعت بعضها ولم تأت فاتورة الباقي.

- ها هي ورقة بتفاصيل المطلوب عمله بعد ذهابنا.

فتحتها، فاذا بها كالاوراق الرسمية التي تصدر عن المؤسسات تتضمن بنودا مرقمة، يريدني أن أتصل فورا بعد سفره بطبيب الأطراف الصناعية ليكشف على رجله ويعمل الضمادات اللازمة والتمارين ليبدأ بعمل الرجل الصناعية، يجب أن أحاول أن أبقي الوالد في المستشفى أطول مدة ممكنة وأحاول التأجيل كلما طلبوا ذلك واذا لم أجد مخرجا آخر انقله لمستشفى المطلع، يجب أن ابحث عن خادمة لمساعدة الوالد في المستشفى أو في حالة خروجه لتقيم معه ليل نهار، وفي حالة حدوث طارىء أتصل بشوكت لترتيب ما يلزم.

- الآن جاء دور حسان وماهر، كم تودون أن تدفعوا؟

أخرج كل منهما فلوسا وأعطاها لشوكت، دفع حسان قسطا وماهر قسطا آخر اكملها شوكت لتصبح ٤٠٠ دينار أعطاني إياها.

- كل شخص مكلف بدفع خمسة وعشرين دينارا شهريا أي خمسة

وسبعين دولارا ترسلونها لي وانا سأوصلها.

- لا استطيع ارسالها خشية من الضريبة. قال حسان

- أرسلها بالطريقة المناسبة، المهم أن تصل، يجب أن تحرص على نفسك، بعد تحويل الأرض باسمك، احصل على رخصة بناء، بع هذا البيت، تخلص منه وابن بيتا للجميع، البيت باسمك لكننا سنستعمله جميعا.

- وماذا بالنسبة للارض؟

- سيكمل المعاملة أخوك، يجب انتظار حالة الوالد، وها قد حضرت ورقة سيوقع عليها الجميع، نحن نعرف أنها لك، لذلك وجب التأكيد على ذلك، أقرأها.

نحن الموقعين أدناه، ابناء الحاج اسماعيل نقر ونعترف بأن قطعتي الأرض المرقمتين...، ...، حوض... والمسجلتين باسم الوالد، هما ملك لشقيقنا حسان وقد اشتراهما من ماله الخاص وليس لاحد منا حق المطالبة بأي مردود مادي أو معنوي أو حق التعرف في ملكية أي منهما أو استعمالهما، وعليه فان توقيعنا هذا يعتبر توكيدا لشقيقنا المذكور لحرية تصرفه وحده دون سواه. وعليه نوقع.

في المستشفى وجدت الوالد مقيدا في يديه ورجله، لكنه كان يشد رجله اليمنى باتجاه صدره حتى تصل يده فيحكها، استرجعت كل العذاب الذي عانيته طوال الفترة الماضية، لم أقبل أن أفعل ذلك من قبل، فاذا كان سيعيش أياما فقط لن أجعل ضميري يعذبني، لن أترك فرصة عتاب بيني، وبين نفسي، صحيح بأنه ربما سيقع، وربما ستكون خطوة في طريق الموت، ربما يمسك رجله، يحكها ويصل لنفس النتيجة، لكن ذلك دليل على اهمال منا، مني، سأفعل كل ما بوسعي لئلا يقع أو يمسك رجله، لكني لن أقيده، سيفعل ما يشاء ولن أندم على شيء ما دمت لم أضايقه، حين أعطاني ماهر المنوم لم أعطه إياه حين كره النوم، لم استعمله، سينام حين يتعب، وسينام حين يود ذلك، حين غاب محمد المرافق قليلا عن أبيه جاءه الطبيب وأخبره بأن يبقى طوال الوقت عنده ليعتني به والا ذهب كل شيء سدى، يجب أن أبقى أنا

الآخر عنده لئلا يذهب كل شيء سدى.

جاء عارف، اقترب نحوي، وبلهجة ودية سألني عن حالة الوالد، قلت: على ما يرام.

- أما زال يخلط في الاحاديث والاحداث؟

- نعم.

- عنده الآن تجلطات في الدماغ، الدم يصل لدماغه فتجده صاحيا واحيان أخرى تسد شرايينه فلا يصل الدم الدماغ فيبدأ بالهلوسة.

- تقريبا.

صمت قليلا ثم قال: أنا أرى أن ماهر مشغول ليل نهار، وحالته الصحية ليست كما من قبل، ماذا يحدث لو رافقني وزار الناس والبلاد؟

أجبته بجدية واضحة: انت يا عارف لاترى كل شيء، كلنا نعمل ليل نهار، حين نذهب للبيت نجدكم هناك، نسهر طوال الليل، كيف سيجد أحد منا الراحة، الظرف ليس مناسبا لزيارة البلاد.

- أهذا رأيك الأخير؟

- نعم.

التفت قليلا نحو الوالد، اقترب منه، وطلب الاذن بالخروج وذهب.

جاء ماهر وقال: يجب أن ننظف جسده الآن، صباح هذا اليوم عرفني، اعتقد في البداية أنني موظف في المستشفى أحرسه، خشيني لانني كنت أحاول منعه طوال الوقت من لمس رجله أو النزول عن السرير، حاول أن يختبر مدى مصداقيتي في منعه، أمسكت به وأرجعته مكانه، منعته من أن يتحرك، عرض علي أن يطعمني ويعطيني فلوسا ان سمحت له بالنزول، قلت له: أتحاول رشوة ابنك!، قال: أين ابني؟ قلت له: إنه أنا، أنا ماهر، قال: أانت ماهر! تعال، تعال أقبلك، أمسك بيدي، أراد تقبيلها، منعته، أمسك برقبتي، شدني نحوه وقبلني، بكى بكاءا شديدا، انهمرت دموعه بغزارة، لم أكن أتصور أن الحاج اسماعيل يبكي هذا البكاء، سألني عن ابنتي وزجتي، تساءل عن السبب في انني اكتفيت بهذه البنت، سأل عنكم واحدا واحدا، يجب تنظيف جسده الآن. حملناه للحمام، خلعنا ملابسه، أجلسناه على مقعد خشبي ونظفناه بالماء

والصابون، فاذا بأحد ابناء البلدة يدخل الغرفة، يحمل بيدة علبة حلويات، ماهر لم يعرفه لكنه قال: أهلا وسهلا. سلمت عليه وهو ما زال ممسكا بالعلبة، قلت له: ان شاء الله نزوركم في الافراح، لم يفهم ما قيل وظل ممسكا بالعلبة، تحدثنا عن الوالد والبلدة وهو لايزال ممسكا بها، سأل عن شوكت، اخبرناه بأنه في البيت فاقترب من الوالد ووضع العلبة قرب رأسه.

عند العصر عادت أمي الى البيت بعد أن حلت مكانها رفقة، حملت فراشها ونامت، أيقظتها لتشرب شايا، قالت: أنا تعبانه يا ابني، اشربوا انتم، دعني استريح قليلا. مسكينة هذه الأم، تعمل للجميع بهدوء، بدون ضجة، كل منا يلقي بهمومه في حضنها، تتحمل كل آلامنا، دائما تقول: الله يرضى عليكم، الله يوفقكم، الله يكثر من اصدقائكم ومحبيكم، الله يبعد عنكم شر حسادكم، الله يحبب كل الناس فيكم. كنت دوما اعتقد أن الجميع يحبنا ما عدا عمي وأبناءه، كنت أتساءل عن السبب في أنها لم تدعوا لان يحبونا، قلبها الطيب يحب الجميع، لا تحقد على أحد، أنهكها والدي في حياته وما زال في أواخر أيامه، تقول: كل الذي تحملته من والدكم لسبب واحد: انتم، لولاكم لما عشت معه أبدا، كان دائما يهدد بالطلاق ويتساءل: ألم تتعلمي مني شيئا طيلة خمسين عاما! دائما يسب أخواني وأخواتي، ما زال يطالبني بذهب أمي، هذا الرجل الذي كانت يده ذهبا! لقد حول حجارة بيت نبالا الى فلوس، وحول جبالها وسهولها وزيتونها الى ذهب، الفلوس كثيرة والخير كثير.. وقوته "تهد الحائط"، لكنه بعد الهجرة لم يعمل، صرنا خدما لضيوفه، كم من مرة حردت عند أخواني لأرجع أبدا حياتي الصعبة معه من جديد، كم من مرة مشيت حافية القدمين من بيت اللو لبيرزيت حتى أصل اولادي واذا عصاه أحد الاولاد كان يقول: هذا الولد ليس من صلبي. أرأيتم! انه يتهمني، ربي يعرف كل شيء، هو الذي كان يدور على النساء ويأتيني في اواخر الليل، ربما أحضر معه قرف غيره، فماذا أفعل؟ هل سمعتم أن رجلا يحدث امرأته عن مغامراته العاطفية والجنسية بفخر! انه قد فعل ذلك، لقد سمعت منه كلمات الطلاق أكثر من مرة.

لكنني لم اترك البيت، وفي النهاية كان يأتيني، يقبل رجلي، أرفضه، يقبلها مرة أخرى فأنسى، أصفح عنه. اذا كان كلامه صحيحا بأنكم "اولاد حرام" فلأنه طلقني أكثر من مرة، ما ذنبي أنا! عشت معه خمسين عاما من المرار والعذاب، انتم يا أولادي رأسمالي، ليس لدي غيركم، والله لولاكم لتركته منذ زمن، هذا الرجل دافع عنا، الناس تهابنا بسببه، بسبب قوته، لكن بيتنا عذاب من داخله، قرر أن نحج، ذهبنا وأخوه وزوجته، على جبل عرفات كان يسب الدين، وفي أيام الاحرام سمع عن طريق صديقه أن أخاه إستحم، اعتقد أنه مارس الجنس مع زوجته، طلب مني ذلك، قلت: يا رجل: انت الآن حاج، ان الله يراك، سيحاسبنا. قال: ألم تسمعي ما فعله أخي، هو ليس بأفضل مني. قاطعني، لم يعد يكلمني، ومقاطعة الكلام حرام، فأنا قبل مجيئي للحج زرت كل من اعتقدت أن هناك مشكلة معها، فاذا كنت قد فعلت ذلك فهل أقاطع زوجي! رضاء الله على البنت من رضاء والديها وحين تتزوج يصبح من رضاء زوجها، ذهبت وكلمته، قال: سخني الماء. حاولت إقناعه دون فائدة، صعدنا للباص وهناك فعلها، صليت كثيرا بعدها، دعوت الى ربي أن يتوب علي، قلت: ربي: انك تراني، الذنب ليس ذنبي، اغفر لي، أنا أتيت لطاعتك، وطاعة الحاج اسماعيل من طاعتك، اللهم أغفر لي ذنبي. الحمد لله، لا اله الا الله.

قالت: قبل أشهر فقط، طلب أن ينام معي، لم استطع رفضه، طال الوقت، أرهقني، رجلاي تورمتا، تعب هو الآخر فقام، في الصباح وأنا اضع الفطور على الطاولة دخل المطبخ، قال: لماذا لم تنتهي من عمل الفطور؟ قلت: هذا هو الفطور، بقي أن أعمل الشاي، تعال وأجلس. تفرس في وجهي وقال: مالي أراك وقد تغيرت طريقة معاملتك لي، يبدو أنك ستحاولين السيطرة علي الآن، أنا الحاج اسماعيل، لم أتغير، لا تحسبين أن ما حدث الليلة سيغير من طريقة تعاملي معك. اقترب من الفطور وقلبه أرضا، لبس وخرج للمقهى.

* * *

-١٣-

ها أنا الآن وحدي، الأخوة ذهبوا، كل أرض نفسه، زار الأقارب وقام بواجب والده كما تقتضيه الضرورة، لامبرر الآن لان يشك أحد من الاقارب في مصداقية أولاد عمهم، أبناؤه وبناته تجمعوا في بيت واحد في لحظات الأزمة، هل تتكرر هذه الخطوة؟ لانريدها أن تتكرر في زمن الشدة ايضا، بل في زمن الهدوء، أنا أعرف أنها لن تتكرر الا في الأزمات، حين تزوجت طلبت منهم جميعا أن يحضروا، لم يحضر أحد، لم أعرف معنى الوحدة الا وأنا أقوم بكل المهام المناطة باحتفال كهذا، كل شيء حملته على ظهري، حتى في يوم الزواج اصطدمت مع أبناء عمي، طالبوني أن أدفع "هدم العم" و "هدم الخال" مع انني كنت قد اتفقت مع انسبائي بعدم التقيد بذلك، يومها صحت فيهم، قلت: لا يتدخل أحد في شؤوني، أنا ابن الحاج اسماعيل، والله لاقطع كل لسان يحاول نهش لحمي، ابتعدوا الآن. ابتعدوا وتركوني وحدي، سيأتون فقط يوم الأزمة.. فليكن، فالازمات محك الرجال كما يقولون، هل يحضرون لو توفي الوالد؟! لقد كانوا هنا بالأمس، لا أظن أنهم سيأتون، .. من الواجب أن يحضروا، ماذا أهذي! هل أخشى مواجهة الأقارب؟! صحيح بأن عارف يتكلم كثيرا لكنه يخشاني أيضا، ثرثرته تضيع في الهواء، هو يعرف أنني أحمل صفات من عمه، لقد هددتهم أكثر من مرة، هو يعرف ذلك فيحاول أن يقارعني بالثرثرة، ألا يذكر يوم حملت العصا أمام وجوههم

فهربوا: لم أكن أتجاوز الرابعة عشرة حين جاء الوالد لتوه من المقهى، وصل عند الحادية عشرة صباحا، كان في العادة يتأخر لما بعد الثانية عشر، يتناول الغداء وينام، فوجئت والدتي، سألته: خير ان شاء الله، هل هناك شيء؟، قال: أين ابنك؟. خرجت مسرعا حاملا كتاب الدراسة، قال: احمل عصاك والحقني. قلت لأمي: ماذا يريدني أن أفعل؟! قالت: لا أدري، انه مثل المجانين، لانستطيع الآن مجادلته، أطعه يا ابني. تطلع خلفه فوجدني ما زلت واقفا، قال: لماذا تقف مثل الأهبل! احمل عصاك والحقني، والله لسوف أودبهم.

- من تقصد؟ ماذا تريد أن تفعل؟ صرختُ في وجهه بعدما أوحى ببعض قصده.

- أقسم بالله أني سأمنعهم أن يقفوا في ساحة بيتهم، أيعتقد أخي وابناؤه بأنهم بفلوسهم أفضل مني!، كلما ذهبت عندهم أو التقيت بهم حولوا كل الاحاديث للفلوس والمشاريع، انهم يستهزئون بي، سأريهم انني ما زلت احتفظ بقوتي وأنا الذي صنعت لهم هذه المكانة. هيا يا ولد.

وجدت كابل كهرباء كانت الشركة قد خلفته وراءها في الشارع، حملته ولحقت به، سرت خلفه، قال: تعال، اقترب مني. اقتربت، قال: انت اليوم صرت كبيرا، حين كنت في مثل عمرك كنت أحمل كيسين من القمح على كتفي، كنت أنا الأقوى ولم يستطع أحد منازعتي، كل من نازلني دست عليه، أنت ابن الحاج اسماعيل، يجب أن تكون مثلي، أريدك الآن وأمام بيت عمك أن تحمل عصاك، تلوح بها في الهواء، نحن لانريد أن نضربهم، نريد أن نهددهم فقط، أما اذا حاولوا مواجهتنا فسنضربهم، أنا سأقف بعيدا، وانت تتمشى أمام بيتهم، أنا الآن "أضرب بسيفك"، لن يقترب أحد منك، فهم يعرفون انك لست وحدك، سيتأدب هؤلاء الأطفال: عارف واخوانه، ليس من طريقة لادخال الألسن في جحورها الا التهديد.

ماذا يريد والدي، انا الاخر لا اكن محبة لابناء عمي، لكن ما الذي حدث اليوم، لم اعتد ان احمل عصا في وجوههم،انا مثل الاودههم لكن

ما العمل اذا كان والدي هو من طلب ذلك! لم استطع معارضته، على التقيد فقط، هو يريدني ان اكون نسخة عنة، انا لست كذلك، جسدي ليس مثل جسد الحاج اسماعيل، لقد كان يشرب الحليب من العنز مباشرة، لقد كان يأكل فخدة خروف مرة واحدة، لم يكن ينتظر حتى يعجن الطحين ويخبز اذا لم يجد خبزا، كان يأكل الطحين مثلما يجده، هذا هو والدي، أما أنا فمن أكون، عاش في الجبال ليلا ونهارا، واجه الضباع، وأمسك باحدها من رقبته حتى قتله، عارك كل رجال القرية بما في ذلك اخوانه، واجههم فردا فردا وجماعات وانتصر عليهم، كان يفتعل مشكلة لاتفه الأسباب، هو من يسمح لهذا أو ذاك أن يذهب لفلانة في بيتها، أما عشيقاته فلم يستطع أحد الاقتراب أو الالتفات نحوهن، ويريدني الان أن أكون نسخة عنه.

وصلنا أمام بيت عمي، قال: أتخفي عصاك! ارفعها. رفعتها قليلا، وبعد مسافة ثلاثين مترا رجعنا، ابتعد عني حوالي خمسين مترا، وقال: الآن اذهب وحدك. مشيت مترددا، التفت الى الأرض حينا والى الجانب الآخر من الشارع حينا آخر، يوقظني صوته: لوح بعصاك عاليا، التفت نحوهم، لا تخف. حين اقتربت منه قال: لقد رأوك الآن، اذهب مرة أخرى، ليكن قلبك مثل الحديد، اتفل عليهم، ها هم قد خرجوا، عارف واخوانه يتطلعون نحونا من خلف الجدار، لن يقتربوا منك. ماذا أفعل يا ربي! إنني اخوض معركة لا أعرف سببها الحقيقي، صحيح انهم لن يستطيعوا مواجهتنا، مواجهتنا! بل مواجهة الحاج اسماعيل، فأنا الذي أضرب بسيفه وليس العكس كما يدعي، اليوم أنا معه، لكنني غدا ربما سألعب في هذا البيت الذي أعلنا عليه الحرب، فما العمل؟! نحن مظلومون من قبلهم، وهل يواجه الظلم بهذه الطريقة! نعم، والدي هو من بعثر فلوسه وليس كل من حمل فلوسا يصبح غنيا، أما أن يذكروننا دائما بفقرنا فهذه هي المهزلة، لكننا متعلمون، كلنا متعلمون، وهل نواجه الفلوس والاحتقار بالعنف هكذا! سنحصل على مكانتنا الاجتماعية ليس بسبب مشروع تجاري نفتتحه بل بعقولنا، أسمع صوت والدي يصرخ: ارفع عصاك. رفعتها كمن يتسلى بها، هربت

النسوة وهرب الرجال ايضا، اصوات الأبواب تغلق قفولها، ووجوه تبان من خلف النوافذ، وصلت والدي، قال: ارجع مرة أخرى. رجعت، رفعت عصاي، التفت نحوهم، لم نعد نرى وجوها، كنت اتوقع أن تأتي رفقة وترجو أباها أن يكف عن هذا العبث، لكنها لم تفعل، اختبأت مع الآخرين وعدنا للبيت.

لماذا أسرح بافكار كهذه الآن؟ كل شيء يأتي في موعده، فكر بما انت فيه الآن، من الآن فصاعدا يجب أن تجهز نفسك للقيام بكل المهام التي كان يقوم بها كل الذين سافروا، أنت وأمك، أنت في الليل وأمك في النهار، مسكينة هذه الأم، فهي لا تستطيع أن تلبي حاجتها في شرب الماء وستقوم بنفس العمل! لا، ليس كذلك، بالتأكيد ان مجيء الاقارب لزيارة الوالد سيقل، لن تعود هناك"مضافة" في البيت، رفقة ستساعد الوالدة في النهار، يبقى الليل، لكني نسيت مواعيد الزيارة، لابد أنني سأجد لها حلا، في منتصف النهار الأول أنام وارجع للمستشفى بعد الظهر، امكث هناك ساعتين، ثلاثة، اعود للبيت، وأرجع ثانية في الليل، لا.. لا، ليس هكذا، ببساطة المستشفى أصبح مأوى لك، حاول أن تهيء نفسك لان تكون الغرفة ٣١٢ غرفتك، ابحث عن سرير خفيف، متنقل، تنام وتستريح عليه، لكن من أين آت بالسرير؟ انس السرير، ابحث عن مقعد بحري تستطيع أن تجلس عليه وتنام ايضا، ومن أين أحصل عليه هو الآخر؟ من بائعي البضائع المستعمله، لا.. لا اظنهم يتاجرون به فليس عندنا بحر، يمكنك أن تجده في يافا، حيفا، أما هنا فلا أظن، حتى أريحا لا أظنها تملك ذلك، كتب علي أن أبقى هنا وأصارع الحياة ليعيش غيري، أي كلام هذا الذي أقوله! صحيح بانني اصارع الحياة لكن والدي سيموت، لا أظنه سيعيش، طلب الطبيب أن نحضر "الممشى"، لكنه لم يستعمله، هو لا يستطيع حتى الجلوس على سريره، فكيف يمكنه المشي! كلام فارغ، هؤلاء الأطباء يعالجون المرض بناءا على اجراءات مبرمجة في عقولهم وفي الكتب، أما في الواقع فالتطبيق يختلف.

أنا الآن وحدي، هذه سنة الحياة، كل أراد العودة لعمله، لقد استنفذوا

إجازاتهم وبقيت أنا في اجازة مفتوحة، اسمع: لا تشغل با لك في ما يقوله الناس، فكر فقط في امك، زوجتك وابنك، ليتدبر كل امره، أعمل على تقسيم العمل، من الممكن أن تصلك رسائل ومكالمات حول نصائح جديدة، لا تستمع لها، لقد اتخذت أنت قرار ادخاله المستشفى، واتخذت قرار اجراء العملية واتخذت قرار دعوة اخوانك ليأتوا، انت من سيتخذ القرارات الأخرى، صحيح بأن كلا أدلى بدلوه، هذا رأيه حتى لو كان شخصا مثل نزهة، من حقها أن تقول ما تريد، ومن حقك أن تقول ما تريده أيضا، كل منكم حر برأيه، خذ الأمور ببساطة، هم يعيشون مشاكلهم الخاصة نتيجة غربتهم، ارتباطكم ببعض لاتنتهي بوفاة الوالد كما زعمت رفقة، ستبقى أمك، وحتى لو توفيت هي الأخرى، انتم أخوة، لكم تاريخ طويل من الصراع والحياة المشتركة، هذه الحياة صنعها الوالد منذ أكثر من خمسين عاما، منذ انجبوا أول طفل. لا.. لا، بل قبل ذلك، لقد ورثنا حياتهم بتفاصيلها، هم يعرفون تفاصيل اكثر مني عن بيت نبالا، لكنني أعرف أكثر منهم عن مرض الوالد، انا من بيت نبالا، كل الناس تعرف ذلك، كلن الناس يعاملونني بهذه الصفة، هذه شخصيتي حتى لو لم اعش فيها، عشت في بيت اللو، بيت اللو بالنسبة لي مسقط رأسي، فيها عشت اثنا عشر ربيعا، لا زلت أذكرها، بيتنا كان هناك، سقيفتنا لم يعد لها وجود، كلما مررت من هناك أقول لزوجتي وابني: هناك عشت، هناك لعبت. لكنها لا تعني لي الكثير، حتى وأنا هناك كنت أعرف أنني من بيت نبالا، انها جزء من مشاعري، لا يستطيع أحد أن يغيرها ببساطة، ربما ستتغير مع الزمن، بالضبط مثلما تغير شكل والدي الآن ، هو يعرف بأن رجله قطعت، ذلك يؤلمه، لا.. لا يعرف، لا يريد أن يعترف بذلك، المرض امتد اليها، الغرغرينا أكلت عظامه ولم يرد قطعها، حتى لو تعفنت لايريد ازالتها، لم يتنازل عن أي جزء منه، تم قطعها رغما عنه، هو لن يستطيع استعمالها لو بقيت، ادخل المستشفى رغما عنه، نحن أولاده من أتخذ قرار قطعها، حتى الآن لا يستطيع تقبل ذلك، لو تقبله لعاش بباقي جسده، ولانه لم يقبله فانه يتهاوى أمام المرض، لم يمنع المرض أو يوقفه، أتسع

مجالا له لينهش جسده ويريد الآن جسده كامل الأوصاف، ليس هذا فقط، السنوات أكلت عمره وما زال يريد أن يحيا كما لو كان شابا، الحل أمامه، إما أن يقبل هذا الواقع أو يرفضه، وها هو يرفضه.

دخل الطبيب وقال بعد أن فحصه: العلاج عندنا انتهى، حان موعد عودته للبيت كان الخبر صدمة لنا، الجميع قال: وماذا نعمل له في البيت! صحيح بأننا سنرتاح قليلا اذا عاد، سنستريح من سهر الليالي في المستشفى، ستكون أية ساعة نوم للوالد ساعة راحة لي، لنا جميعا، سنقوم بكل أعمالنا في البيت وخارجه بعيدا عن جو المستشفى، سأكون كما لو كنت أسهر في بيتي، لكن من سيفحص له سكر الدم؟ سكر البول يمكن قياسه، من سيعطيه ابر الانسولين؟ واذا امتنع عن الاكل من سيركب له المغذي بالابرة! البول يذهب مباشرة عبر الانبوب للكيس، أما في البيت ماذا سنفعل؟ هنا يوجد شراشف وغيارات كثيرة، لكن في البيت هل نضع غطاءا بلاستيكيا لمنع تبلل الفراش! اذا طلب أن ينزل عن السرير ننقله على مقعد متحرك، وماذا سنفعل اذا ما عاد للبيت؟ هل نحمله للحمام؟ هو لا يساعد حامله أبدا، يلقي بكل جسده على حامله، قبل يومين أصر أن ينزع مَشَدَّ رجله عند العملية، منعته، سبني، لعنني، لم يبق أحدا الا لعنه، أحضرت شرشفا ووضعته حول وسطه، ثبت طرفيه أسفل فراش السرير، لكنه استيقظ في الليل وفك الرباط، جاء الطبيب، أعطاه إبرة مخدر فنام، اذا كنت لا استطيع منعه بحضور الاطباء والممرضين، فكيف نمنعه أنا وأمي حين نكون وحدنا في البيت!

ذهبت لرئيسة الممرضات، أدليت لها بكل ما عندي، قالت: يبدو أنهم زهقوه، ليس هناك شيء من هذا مسجل في الملف، انسى الموضوع.

التقيت بالطبيب ثانية، قال: ساكتب له أمر مغادرة. طلبت منه أن نجلس ونتحدث وحين فعلنا، قال: لانستطيع أن نقدم له أكثر مما فعلنا، يمكن أن تتحسن حالته اذا أحس أنه في البيت، صحته مرتبطة بالغذاء، عمليته جيدة، يمكن أن يتحسن هو الآخر، قمنا بكل ما يجب، لم يبق شيء، تستطيعون مراجعتنا كل اسبوع.

نادى علي أحد المرافقين، قال: خذوه على العيادة، عندها سيرجعونه هنا.

احد الممرضين قال: اخبروا الدكتور عماد رغم النفور بينهما.

ممرض آخر قال: يمكن الحصول على مقعد متحرك من الصليب الأحمر، يمكنني أن أزوره مرتين في اليوم، أحصل على عينة من دمه لافحصها وأعطيه إبر الانسولين اذا احتاج، سأراقب جرح عمليته، سنرى خلال أيام حالته، اذا لم يتحسن سنعيده للمستشفى يمكنكم الحصول على انبوب بول من الصيدليات، يمكن تركيبه خارجيا، سيقلل من الالتهابات لان ما نستعمله اذا طالت مدته يسبب التهابا في مجرى البول.

ناداني، أشار بيده أن أقترب اكثر، وقال: لنذهب للطبيب ونشرح له حالة اصابعي، نسمع ما يقوله، ان قال أن العملية ستنجح، نجريها، لنتوكل على الله، سنخبره عن الاصابع فقط، دعه يعتقد أننا لا نعرف شيئا آخر، لاتخبره عن رجلي، أريد أن أعرف ان كنت سأموت أم سأعيش، اذا أجروا العملية ولم أمت سأظل أمشي مثلما أفعل ذلك الآن، يجب أن نعرف ان كانت العملية تضر أم تنفع.

اقتربت من اذنه، وبصوت عال صرخت: لقد اجروا العملية منذ فترة.

- ماذا! هل أجروها!

- نعم.

- هل قطعوها دون أن أدري! متى؟

- منذ شهر، لقد كانت متعفنة.

- لا، رجلي لم تتعفن، كان بها ورم فقط.

- بل متعفنة، لذلك قطعوها.

- تعال، ساعدني حتى أراها.

أبعد الغطاء عن جسده، قربها منه، تفحصها وقال: قطعوها... لقد قطعوها، اسمع: لا تخبر أحدا، اترك كل شيء كما هو.

أمسك برجله اليسرى، قارن بينهما، تأكد بأن احداها قد قطعت، فقال: اسمع: لا تخبر أحدا، لنحتفظ به سرا بيننا، الله هو الذي أراد ذلك.

- اذا غطـها حتى لا يراها أحد.
- نعم غطها، أتعتقد أنني استطيع أن أمشي؟
- نعم، ستستطيع، الطبيب سيضع لك رجلا وستمشي بعدها.
- هل يعني ذلك أن الطبيب سيراها؟
- طبعا، سيراها عندما نعود للبيت.
- ومتى سنعود؟
- غدا.
- ما الفرق بين اليوم والغد؟ هيا بنا الآن. محاولا النهوض.
- ستنام الليلة هنا وغدا نعود للبيت.
- ما أخبار الجيران؟ دار أبو محمد، أبو بكر، أبو الدبسة، المصرية، صافية؟
- هل يعرفون عن حالتي؟
- يعرفون أنك في المستشفى.
- هل يعرفون أن رجلي قطعت؟
- لا.
- لا تخبرهم حتى يظلوا يهابوننا، عندما أعود للبيت سأظل نائما، سأتظاهر بانني مريض.

* * *

-١٤-

لم أصدق أنهم وقعوا أمر خروجه بالفعل، جاء الطبيب وقال: أخرجوه اليوم، هذه بطاقة مراجعة، يوم الثلاثاء أكون في العيادة الخارجية. حملت أوراقه، اتجهت نحو الغرفة، جمعت ثيابه وأغراضي ومجموعة علب الحلويات، درت على الغرف أودعهم، هنأوني بالسلامة المبتورة، على المقعد المتحرك أنزلته، كنت أراقب كل شيء حولي في الممر، احفظه جيدا، الغرف أعرفها غرفة غرفة وأعرف كل من بداخلها، وقبل دخول المصعد شعرت بأنني اودع جزءا من حياتي، منذ اكثر من شهر وأنا أعيش هنا، ربما عمري كله قضيته هنا، انهمرت دموعي وأنا أودعه، أتركه اليوم ليحتل غيري مكاني، يمكن أن ينتهي المستشفى من حياتي، لكنه سيظل جزءا من حياة الآخرين، أناس يدخلون وآخرون يخرجون، البعض يخرج ميتا لكنه في النهاية سيخرج، لايمكن لابواب المستشفى أن تغلق، ستظل مفتوحة بشروطه، هذه هي الحياة، أعرف بانني سأعود اليه غدا، لا أعرف متى يأتي هذا الغد، رجل في مثل سن والدي لايمكن أن يعيش الدهر، ان لم يأت بعد أيام سيأتي بعد أشهر او بعد سنين، بعد سنين؟! الله اكبر! أأظل احتمل الحالة هذه سنينا!! لا.. لا، المسألة ليست بين يدي، ليبق حيا كما يشاء، تقول أمي: رائحة وجوده أفضل من عدمها، وتقول نزهة: والله أني لاقبل أن أنظف تحته

ليلا نهارا مقابل وجوده، يجب أن تقدم كل ما تستطيع حتى لا تشعر بندم في لحظة ما بعد وفاته، اذا توفي سينام قرير العين وستنام أنت مرتاحا، بدون قلق. هذا ما فعلته، ومن بدأ الخطوات الأولى عليه اكمالها والا ضاع كل ما سبق هباءا.

على باب البيت عند مدخل مخيم قدورة وقفت السيارة، طلبنا منه أن ينزل، رفض.

- انزل يا جدي، لقد وصلت البيت.

- انزل يا عمي على دارك.

لم يجب، أمسك به عارف، اقترب من أذنه وقال: انزل يا حاج على الدار.

- أنا هنا بين أقاربي، ابتعدوا عني.

- يا رجل: هذا باب الدار.

- والله لو نزل سيدنا عيسى ما نزلت.

كل حاول اقناعه، رفض بشدة، صار يبكي، تدخلت وقلت بحزم: لا ضرورة لاقناعه أو مراضاته، المهم أن ندخله البيت.

أمسكت به من كتفيه، وضعت يدي تحت ذراعيه، حملته وساعدني الآخرون بحمله من وسطه ورجله.

على مدار اكثر من اسبوع ونحن نعتني به في البيت، الجهد أقل من قبل، والجو النفسي تحسن أيضا، لكنه في النهاية عمل مرهق، فرشنا له أرضا، اشترينا اكياسا للبول، يزيلها في كل لحظة تصل اليها يداه، نعيدها مرة أخرى، وهكذا، الشراشف لا بد من تغييرها خمس مرات يوميا وكذلك ملابسه، رائحة غرفته مليئة بنتانة بوله، رائحتها تنبعث لكل من دخل فيها، يأتي الاقارب ويجلسون قربه، يحدثونه ويحدثهم هو الآخر، نحاول اطعامه يوميا الشوربة واللبن، يقبلها حينا ويرفضها حينا آخر، يأتي الممرض كل يوم يأخذ عينة من دمه ويرى ان كان يعاني من جفاف، عندها يعطيه المغذي، لكنه لا يصل عروقه، يقف سريانه، كيف؟ لا ندري فنوقفه، نضعه على المقعد المتحرك، ننقله في ساحة البيت عند الباب الخارجي، يدوخ، يقع أرضا، عندها نعيده

للفراش.

في الليل، أنام على السرير بجانبه مباشرة ليظل تحت رقابتي دائما، أصحو فأجده قد انسحب قليلا قليلا وبكامل قوته، وسادته تحت رأسه، يدفع برجله اليسرى جسده نحو الباب، يخرج من الغرفة، أنهض، أسأله: الى أين أنت ذاهب.

- الجو هناك أقل حرارة، دعني أخرج من الغرفة.

- ارجع لتنام هنا، الآن منتصف الليل ويريد غيرك أن ينام أيضا.

احمله، أعيده الى فراشه، أنام، اصحو، أجده في الممر وهكذا طوال الليل، يريد ماءا ليشرب، فتمتلىء الغرفة برائحة البول العفنة.

ها هي الأيام تمر والتحسن لايبدو عليه، حالته كما هي، ذاكرته أفضل، فعندما جاء أحد أبناء بلدته، وقبل أن يسلم عليه قال: أهلا وسهلا يا أبو اسماعيل. بالفعل كان اسمه كذلك، هذا صديقه سمى ابنه اسماعيل تيمناً بالحاج اسماعيل، سماه كذلك حتى يكون قويا مثله، حتى يكون شجاعا مثله، انه ابنه الوحيد، لكن اسماعيل هذا أصبح شيئا مختلفا عن الحاج اسماعيل، انه شجاع من نوع آخر، درس الزراعة في جامعة دمشق، تخرج منها بعد ثمان سنوات، قضى كل سنواتها في اتحاد الطلبة، سجن في سوريا، طريق الشام بيروت تعرفه جيدا، وعند رجوعه للعمل في الاردن حرموه من العمل في المؤسسات الحكومية، سجنوه، وفي النهاية عمل محاسبا.

عندما زاره أبناء أخيه، ألقى ما يشبه خطبة الوداع، كانت كل كلماته حكما، الجميع أنصت، سمعوا كل كلمة قالها، بكى البعض والوالد منسجم فيما يقوله: لا تقل في يوم من الأيام أنك الأقوى، ستجد من هو أقوى منك، لا أقصد الناس فهؤلاء تستطيع معاركتهم بل أقصد الحياة، كما ترون. من كان يتغلب علي؟ لا أحد، الجميع كان يخافني ويحترمني لقوتي، لم أعد شابا، هذه هي الحياة، شخص يسلم الآخرين تبعاتها، رجلاي لم تتركا جبلا في كل فلسطين الا داسته، وها أنا الآن برجل واحدة، لا أستطيع المسير، كم كنت قويا! كم كنت جبارا! هذا شيء يختلف عن معاملة الناس، لو كنت شريرا لما أحبوني، لكنهم

يأتون لزيارتي كما ترون، يقضي الانسان عمره وهو يبحث عن الأفضل، صدقوني أن كل يوم يمر أفضل من السابق، كنا نأكل ما نزرعه وما نربيه من أغنام ودجاج، أما الآن فاننا نشتري حتى البقدونس والنعناع، علمنا أولادنا، اعتقدنا بأن الفرج سيأتي غدا، زوجناهم وانتظرنا، الأولاد عملوا وانشغلوا مع أولادهم، كنت اكثر الناس غنى في بيت نبالا، ونتيجة ما حدث تجدونني هنا في المخيم، كنا نعتقد أننا نواجه الانجليز واليهود بعضلاتنا، لذلك كنا نتفاخر بقوتنا، كنا نعتقد أننا الأقوى، كنا نمسك اليهودي من لحيته ونبصق فيها، لكنهم كانوا أكثر قوة منا، اعتقدنا بأن الدول العربية ستساعدنا وترجعنا لبلادنا ولم تفعل، هم السبب في ما أعيشه الآن، هم السبب في السكن في قدورة، هذه هي الحياة، ستظل تتعلم منها حتى وان كنت على فراش موتك.

والدي ما زال يتعلم من الحياة حتى وهو على فراش موته، لقد بكى هذه الحياة ونحن ايضا نبكيه، نبكي الحياة التي عشناها معه ندما على فقدانها رغم أننا نرفض حياته بالشكل الذي عاشها، لماذا نعيش حياتنا الاجتماعية بهذا الاسلوب وبهذا التناقض؟ انها حياة صراع دائم، كلنا أبناء الحاج اسماعيل، كل واحد منا تصدى له بطريقة أو بأخرى في سني حياته ومرضه، كل واحد منا تصدى لأخيه واخته وحتى للاقارب والمجتمع أيضا، ألم يتعارك عارف مع من طلبوا مساعدته وتباكى على كرامة "دار سليمان"! ألم أتعارك مع نزهة! وفعل الباقون مثلي مع آخرين، لم نكن نرفض منطق والدي بمنطق آخر مختلف كليا، صحيح بأننا نحاول سلوك منطق آخر لكننا سرعان ما كنا ننجر لمنطقه، ألم أقل لابناء عمي: أنا ابن الحاج اسماعيل! ألم يقل ماهر وهو الطبيب النفسي ويعيش في اسبانيا منذ عشرين عاما: والله يا حاج اسماعيل لو سمعت أنك مسست أمي في شعرة منها لاتيت أتخلص منك وللأبد! ألم..! ألم...!، كلنا الحاج اسماعيل بشكل أو بآخر، لنعترف بالحقيقة: لايمكن معرفة الشخص من خلال كلماته فعندما نتحدث أو نتصرف ندعي أننا نملك منطقا آخر مختلف كليا. كلنا نعرف عيوب والدي، كلنا يضع

اصبعه على الاخطاء، لكن حين نغضب، أو نقع في ملمة نتصرف مثله تقريبا، يقولون: الشدائد محك الرجال، وعند الشدائد تستطيع تصنيف من حولك، لم نتخلص من ثوب الحاج اسماعيل بعد، ولا نستطيع ذلك، اننا بحاجة لاجيال وأجيال حتى نرى ما نتمناه على أرض الواقع، هناك فرق بين قناعاتنا وممارساتنا، ان القناعة غالبا ما ننساها حين نواجه الواقع، يحدث هذا مع كل أبناء البشر، ألم تسمع بقصة القروي الذي عاش مع ابنة المدينة اعواما طويلة، غير لهجته لتماثل لهجتها، صار يتكلم كأبناء يافا وحين غضب وأراد أن يسبها، خرج منه السباب بالضبط كما عرفه صغيرا في بيته، خرج السباب لوحدة ودون تخطيط، حينذاك اكتشفته، قالت: أهلا أهلا يا فلاح، اظهر على حقيقتك يا ابن الفلاح. يومها طلقها وعاش حياته دون تكلف، للتكلف حدود، وحدك تعيش حياتك كما تريد، أما اذا تدخل الاخرون تعيشها كما يريدون مع بعض التحسينات، انني أعمل في البيت كما زوجتي ما دمنا نعمل الاثنان، ورغم الملاحظات التي اسمعها: "محكوم"، "تحت الدرج" فانني وعند زيارة أبناء عمي لبيتي أجد نفسي ودون تخطيط مسبق أطلب من زوجتي أن تغلي شايا، أشياء كثيرة تحدث، لماذا ألوم نفسي! فأنا احمل مجموعة افكار أرى أنها الأفضل، سأعمل على تطبيق كل ما استطيع، فأنا جزء من هذا المجتمع والأقارب والاصدقاء، الاصدقاء جزء من المجتمع وليسوا كله، يجب أن أعيش وأن أنقل المجتمع خطوة أخرى للامام، لقد تساءل أبناء عمي ان كنا سنخلص للكبار كما فعلوا هم، أخلصنا لهم لكن كل بطريقته، فنحن لسنا كتلة واحدة، الحاج اسماعيل في داخلنا كل بنسبة مختلفة، الصغار ليسوا بالتأكيد مثل الكبار، ابني يختلف عني بالتأكيد، واذا كان الحاج اسماعيل يفرض سلطته بطريقة أخرى فانني ودون أن أدري أبني سلطة لي، هل سأتخلف عن ابني في رؤيته للواقع! ربما، سأحاول أن لا اكون كذلك، لقد تصديت لوالدي حين اقتربت من العشرين، لكن ابني يتصدى لي منذ الان، حين كنت في مثل سنه، كنت اعتبر والدي عدوا، لم أسمع منه يوما كلمة تدل على محبته لاولاده أو لزوجته، لم يكن يكلمني أصلا، لم أكن أتناول الطعام

معه، واذا ما رأيته يقترب مني وأنا ألعب في الحي كنت أهرب حتى لا يراني، اعتقدت أن الوالد يكرهني، يومها سألت أحد الرجال الكبار عن سبب كراهية الأب للابن، قال: لا، الأب لا يكره أبناءه، انه يحبهم بطريقته الخاصة، كيف! لم أكن أدرك ذلك، أنا لست مثله، لا استطيع سوى أن أعبر عن عواطفي بالكامل لزوجتي وابني، هذه هي الحياة، الحياة تغيرت، لم أعد الحاج اسماعيل رغم أنه ينغرس في داخلي شيء منه، انه تحت جلدي بالضبط كما الحضارة التي أعيشها وتحمل داخلها كل الحضارات على هذه الأرض، بل امتدت لحضارات أخرى، الحاج اسماعيل لم يولد منذ خمسة وسبعين عاما ولن يموت خلال سنين، يحتاج عشرات السنين بل مئات منها، انني مجرد زهرة أو ورقة على شجرته، وربما نكون جميعا أوراقا على شجرة الماضي، تسقط احداها وتظل البقية يانعة حتى تسقط فتنبت مكانها أخرى، الشجرة باقية وستتغير مع الزمن، هذه هي الحياة، انني اعيشها رغما عني وبهذه الطريقة، الامل باق والجذور باقية والحياة تسير ثانية بثانية، ساعة بساعة، سنة بسنة والحياة تسير، يذهب جيل ويأتي جيل آخر اكثر شبابا في كل شيء، الحياة تسير، الحياة تسير.

إننا نتعلق بالماضي ونحلم بالمستقبل معا، لايمكن أن نكون الماضي ولا المستقبل، إننا الحاضر، زيارة شوكت، حسان، ماهر ونزهة للوالد جزء من التعلق بالماضي، وعودتهم لعائلاتهم وأولادهم جزء من الحلم بالمستقبل مع أنهم لا يرونه بنفس المنطق، رغم أن الماضي حمل لي ولاخواني صورة القساوة والاضطهاد الا أننا ما زلنا نرتبط بحاضرنا بطريقة أو أخرى، صحيح بأن الوالد جزء من العلاقات الانسانية والاجتماعية التي يصعب علينا قطعها، لكننا وددنا ذلك سواء صرحنا به أم لا، لم نعد نحتملها، الوحيدة التي قالت: "رائحة وجوده أفضل من عدمها" هي أمي، أمي ايضا جزء من الماضي وان اختلفت عنه باشياء كثيرة، عارف ايضا يود التخلص منه ولا يريد في نفس الوقت، يريد أن يتخلص منه ليفسح له مجالا بالانطلاق نحو توسيع دائرة سيطرته ولا يريد ذلك لإنه ليس متأكدا اننا سنصبح كذلك بالفعل،

يخشى أن يتمزق إطار السيطرة ولا يبقى له شيء، ألم يقل: "تريدون أن تدوروا على حل شعركم"! لقد بكاه من داخله وليس مجاملة أبدا، لقد اختار دائرة الكبار وبذلك إنحاز للحفاظ على الماضي دون تطوير، التطوير يجب أن يجري رغما عنه، فالاجيال القادمة لا ترحم، فاما أن يلاقي مصير عمه وأما أن يعيش معزولا دون أثر يتركه، لقد ضربه شباب الخليل وتباكى على كرامة العائلة والحمولة،كل منا يحتفظ بماضيه، ومن يقول غير ذلك يكذب وها أنا ذا ما زلت مهتما بوالدي رغم نهايتة التي أعرفها منذ دخوله المستشفى. شوكت سمى ابنه الخامس اسماعيل، سماه كذلك على مضض، حسان سمى ابناءه: ناصر، ماهر، نبيل وان لم يعودوا الآن ابناءه من وجهة نظرنا، ماهر سمى ابنته الوحيدة ياسمين، ما زال يرفض أن يرزق باخوان لها، العائلة تريد له ولدا ليكون سنده في المستقبل، قال: ضمانتي للمستقبل هي شهادتي ووظيفتي، أريد أن أعيش حياتي كما أراها دون أن يتدخل حتى ابني فيها، لايهم ان كان لي ولد أو بنت، في هذا الزمن ستربي ابنتك مثل ابنك. ربما يكون ماهر أكثر من تخلص من الحاج اسماعيل، لكنه ظل مرتبطا به في كل لحظة، انهم ينادونه في اسبانيا اسماعيل وليس ماهر، لقد فقد اسمه وبقي الحاج اسماعيل له مرافقا.

يوم الثلاثاء حملناه للعيادة، انتظرنا دورنا أنا وعارف، جاء الطبيب، أزال اللفافات عن رجله وقال: انها جيدة، هذا دواء له، ظل عارف ينظر لرجله باشمئزاز، قال: ما هذا! أف.. أف، عندها أمره الطبيب بالخروج، قال: اذا كنت لاتحتمل رؤيتها فلماذا تدخل!

قلت: وهل يحتاج لعلاج خاص.

- لا، حاولوا اطعامه، وان شاء الله سيتحسن.

- هل نصنع له رجلا صناعية، الطبيب الخاص بذلك أخبرني بأنه سيستعمل نوعا معينا من الابر حتى تصبح اكثر صلابة.

- قل له أن لا يتدخل الآن، ما زال الوقت مبكرا على ذلك.

بعد يومين قلت حركة الوالد تدريجيا، يداه تورمتا منذ استعمال المغذي، لم يعد يحرك سوى رأسه، انتظرنا يوما آخر بلا فائدة، لم يعد

يتناول الطعام، يشير برأسه ان أراد ماءا، نحاول ايقاظه، نحرك يديه، رجله بدون فائدة، سألت الممرض، قال: اذهب للطبيب وإسأله، قلت: لكن يوم المراجعة هو يوم الثلاثاء، قال: لن تخسر شيئا اذا ذهبت وسألته.

على درجات المستشفى التقيت بالطبيب، اخبرته عن الحالة، قال: معنى ذلك أنه أصيب بجلطة، أنا لا استطيع عمل شيء، مهمتي انتهت، أخبر قسم الباطني.

أي منهم اكلمه؟! فأنا لا أعرف هناك أحد، سوف أخبر صديق ماهر، فلقد كان يدرس معه في اسبانيا، كان يأتي لزيارة الوالد كل يوم، لابد سيساعدني، ذهبت اليه، أخبرته، قال: ليس هناك سرير، انتظر حتى الظهر حتى يخرج أحدهم، وقبل الظهر حملناه الى المستشفى ثانية.

* * *

-١٥-

سهر، تشرد، ألم، صراع، معاناة، ها هي المعاناة قد بدأت من جديد، وها أنا أعود مرة أخرى لاكون مرافقا في المستشفى، لكنها ليست مرافقة من النوع الاول، بل معاناة الوداع الحقيقي لحياة مشتركة استمرت ثلاثين عاما، فالحاج اسماعيل الآن ليس سوى جثة ملقاة على السرير، يتنفس، يحرك رأسه دون قدرة على التكلم، منذ لحظات وصوله واهتمام خاص به، الجفاف يجب معالجته، أكياس السوائل المغذية تتوالى ساعة بعد ساعة، يأتي الطبيب والممرضون من وقت لآخر يقيسون ضغطه، يأخذون عينات من دمه لفحصها ولما كان من الصعوبة أخذ العينات من عروقه فانهم يأخذونها مباشرة من كليته، آثار الألم تبدو واضحة على وجهه، يسألون باستمرار: ماذا حدث معه؟ متى خرج من المستشفى؟ كيف اعتنيتم به في البيت؟ كيف وصلتم لقناعة بأن تعيدوه للمستشفى؟ وأسئلة كثيرة غيرها تتعلق بشخصيته.

مرافقة الوالد بحد ذاتها ليست قاسية الآن، فالسرير لا يعلو الأرض أكثر من نصف متر، الغرف اكثر نظافة، وحتى أنام لا يسعني سوى إزاحة السرير عن الحائط قليلا، أضع رأسي قرب باب الغرفة وأنام، أنا متأكد أنه لن يصحو وبالتالي أنام مطمئنا بأنه لن يقع أرضا، يقطع نومي خروج ودخول الممرضين أو صياح المرافقين والمرضى الآخرين.

في الليلة الثالثة استيقظ الوالد من نومه أو من غيبوبته، تجمع الأقارب حوله، طلب أن نساعده للعودة للبيت، لم يعرف أحدا منهم، رجاهم أن يساعدوه، كان يتحدث بود لكل من جالسه، يضحك ويبتسم، عيناه صافيتان كالبلور، وجهه يتدفق حيوية، يداه عادتا كما لو لم يكن مريضا، كلما حاول النزول اعيده للسرير، يبتسم، يرجوني أن اعيده للبيت، يستحلفني باولادي أن أساعده، يحاول فك الابرة بين لحظة وأخرى فنمنعه.

غبت ساعات قبل أن أقضي ليلي هناك، رجعت فوجدته مقيدا بالسرير، ربطت يداه بطرف السرير عند رأسه، لم أعد أسمع صوته واضحا، كان يتلوى بكامل جسده، يحاول فك يديه بدون فائدة، دموع تنزلق على وجنتيه، يتألم ويشد يديه، يبكي، جلست بجانبه، مسحت بيداي على رأسه، نظر نحوي، شد يديه وبكى، بكى برجاء، انهمرت دموعي أنا الآخر، إقتربت منه اكلمه، وجدته لا يعرفني، لكنه يتألم ودموعه تنساب بهدوء، طلبت اذنا من الممرضين بفكه، لم يستجيبوا، اذ يجب أن لا يتحرك، رجعت للغرفة، فككت قيوده، أمسكت يديه، آثار القيود تكاد تقطعها، قبلتها، دلكتها دون أن اسمح له بامساك الابرة، شعرت بيده قوية، لم استطع مقاومته، أمسك بي ودفعني بعيدا، أمسكته ثانية، ربطت احدى يديه وأمسكت بالأخرى، أزال الغطاء بقدمه، ودفعني بها، التصقت بالحائط، طلبت من احد المرافقين مساعدتي، ربطت يده الأخرى بالسرير، شدها بكل قوته، لم يستطع الافلات، حاول مرات دون فائدة، جاء الممرض بابرة مهدىء فنام.

في اليوم التالي عاد الى حالته الاولى بلا حراك ولا قدرة على الكلام، ارتفع صوت شهيقه، أصدر صوتا كما الشخير، زاغت عيناه قليلا قليلا، جاء الممرضون بجهاز تخطيط القلب، قاسوا ضغطه مرة كل نصف ساعة، انخفض الضغط رويدا رويدا ١٢٠/٦٠، ١٠٠/٥٥، ٩٠/٤٥، ٨٠/٣٥، ٦٠/٣٠، طلب الممرضون منا أن نخرج، جاء الطبيب، أغلق الباب، تجمع الأقارب خلال نصف ساعة، وقف الجميع وراء الباب، رفقة

تنشج، تمسك بها أمي، تطلب أن نتوكل على الله، فتح باب الغرفة، خرج الممرض واحضر عربة نقل، خرج الطبيب وقال: البقية في حياتكم.

. . .